من الدستور الإلهي

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم

{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: 143].

{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ} [آل عمران: 110].

{وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ} [آل عمران: 103].

{إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ} [الأنبياء: 92].

{وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ} [المؤمنون: 52].

* * *

مقدمة

ربنا لك الحمد، كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك.

وصلاة وسلامًا على من أرسلته رحمة للعالمين، وحُجَّة على الناس أجمعين، بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وعلى آله الطيبين، وأصحابه الغر الميامين، وعلى من دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أما بعد ...

فمنذ سنوات ثلاث و«مركز الدراسات الحضارية» بالقاهرة يصدر تقريرًا سياسيًا موضوعيًا تحت عنوان «الأمة في عام»، وهو لا شك خطوة إلى الأمام.

وكلمة «الأمة» يمكن أن تُطلق على الأمة بالمعنى المحلي: مصر مثلًا، ويمكن أن تُطلق على الأمة بمعنى أكبر: المعنى القومي الذي يشمل العرب جميعًا. فهذا وذاك يدخل في مسمى «الأمة» بمعنى الجماعة.

ولكن المعنى الذي ينقدح في ذهن المسلم - إذا ذُكرت كلمة الأمة - هو الأمة الإسلامية، فهو الذي يخطر بالبال، ويحضر في العقل، لأنها الأمة التي ينتمي إليها بحكم إسلامه، وهي الأمة المذكورة في قرآنه وسنة نبيه، وتراث حضارته.

ولا غرو أن بدأ التقرير بمصر، ثم ثنى بالعرب، ثم ثلث بالأمة الكبرى: أمة الإسلامية.

ولقد طلب مني مدير المركز أن أكتب مقدمة لهذا التقرير الذي يتحدث عن الأمة المسلمة، فكتبت كلمة طالت نسبيًا موضوعها: «الأمة الإسلامية ...

حقيقة لا وهم»، وقلت للإخوة المسئولين في المركز: تستطيعون أن تأخذوا منها ما يروقكم، وتحذفوا الباقي، ولا حرج عليكم. ولكنهم - جزاهم الله خيرًا - نشروها بكاملها.

ولقد قرأها كثيرون وعبروا عن سرورهم بها لما لمسوه من قوة المنطق الذي يعرض لقضية من أهم قضايانا وأخرطها، وهي قضية وحدة الأمة الإسلامية، وموقع الخلافة منها، وأمل الأمة في عودتها، وحكم الشرع في غيبتها.

ولكني فوجئت بما كتبه الأستاذ سيد ياسين مدير مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بصحيفة «الأهرام» منتقدًا بشدة ما كتبت، معتبرًا ذلك حلمًا من أحلام الفقهاء! لا يمت إلى الواقع بصلة! وهبه حلمًا، أفحرام علينا أن نحلم كما يحلم الآخرون في عالمنا؟ وقد حلم آخرون من قبل بما هو أبعد عن الواقع من هذا الحلم وحققوا أحلامهم.

وقد اضطررت أن أرد على الأستاذ ياسين في نفس الصفحة بالأهرام، وإن حذفوا بعض الفقرات من ردي - ربما بسبب المساحة - مما أحسب أنه لا يمس الجوهر. ثم عاود الأستاذ الكتابة تعقيبًا على ردي، فكان لابد من رد على الرد. وأغلقت الموضوع.

وها أنا ذا أنشر الموضوع كله على القُراء، رجاء أن ينتفع به من شرح الله صدره للحق، وبخاصة أن أكثر الذين تابعوا هذه المساجلة لم يقرأوا مقالتي الأصلية، حيث إن التقرير يوزع في نطاق محدود.

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه ... أمين.

القاهرة: ربيع الأول سنة 1415هـ (سبتمبر 1994م).

الدكتور يوسف القرضاوي

* * *

الأمة الإسلامية ... حقيقة لا وهم

يقول الإمام الراغب الأصفهاني في «مفردات القرآن»:

«الأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء أكان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا، وجمعها: أمم. وقوله تعالى: {**وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم**} [الأنعام: 38]؛ أي كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع، فهي من بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسرفة[1] ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقته كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصلى الله عليه وسلم بها كل نوع»[2].

وفي الحديث: «**لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها**»[3]، وفيه دلالة على وجوب المحافظة على الأجناس من الانقراض.

وقد وردت كلمة «أمة» في القرآن. بمعنى الجماعة من الناس في (44) موضعًا، منها قوله تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل: {**رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ**} [البقرة: 128].

ويقول صاحب «القاموس المحيط»: «الأمة: كل جماعة أرسل إليهم رسول سواء آمنوا أو كفروا».

---

(1) السُرفة: دويبه غبراء تبني بيتًا حسنًا تكون فيه، وهي التي يُضرب بها المثل فيقال: «أصنع من سُرفة».

(2) «مفردات القرآن» (ص86)، طبع دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، بتحقيق عدنان صفوان داودي.

(3) رواه أبو داود في «الصيد» (2845)، والترمذي، وقال: حسن صحيح (1489)، والنسائي (4285)، وابن ماجه (3204) كلهم عن عبد الله بن مغفل.

وينقل «اللسان» و «التاج» عن الليث: «كل قوم نسبوا إلى نبي فأضيفوا إليه فهم أمته، ولهذا قيل: أمة محمد صلى الله عليه وسلمص ... وبهذا اعتبروا عنصر الدين في تكوين الأمة وتميزها أمرًا أساسيًا».

بل قال بعض اللغويين: الأمة هي الدين. وقال الزجاج في قوله تعالى: {**كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ**} [البقرة: 213]؛ أي كانوا «على دين واحد»، ويقال: فلان لا أمة له؛ أي لا دين له ولا نحلة. قال الشاعر:

هل يستوي ذو أمة وكفور؟

وقال الأخفش في قوله تعالى: {**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**} [آل عمران: 110]؛ أي خير أهل دين(4).

وإذا صح قول من قال: كل من بعث إليهم رسول من الرسل فهم أمة له، وكان محمد صلى الله عليه وسلمص إلى الناس كافة: {**قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**} [الأعراف: 158]، {**وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ**} [الأنبياء: 107]، كان العالم كله - بشرقه وغربه وعجمه وعربه- أمة محمد صلى الله عليه وسلمص.

وهذا صحيح بالنظر إلى أمة الدعوة، فالمسلمون متفقون على أن أمة محمد تشمل الناس جميعًا، ولكنهم اتفقوا كذلك على تصنيف هذه الأمة أو تقسيمها إلى قسمين:

الأول: أمة الإجابة، والمقصود بها كل من استجاب لدعوة محمد صلى الله عليه وسلمص وآمن به ودخل في دينه.

والثاني: أمة الدعوة، وتشمل سائر العالم بعد ذلك.

---

(4) انظر: «تاج العروس شرح القاموس»، مادة: «أ م م».

وأمة الإجابة هي المقصودة إذا قيل: الأمة المسلمة، أو الإسلامية، أو أمة الإسلام، أو أمة محمد، أو ما شابه ذلك من العبارات. بل هي المقصودة بكلمة «الأمة» عند الإطلاق.

والمهم الآن أن نبين بوضوح: هل توجد أمة مسلمة حقًا؟ أو أن هذا وهم اخترعه علماء الإسلام ودعاته، ولا ظل له في الواقع؟

ومما لا نزاع فيه: أن المسلمين - الذين رضوا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن كتابًا، وبمحمد صلى الله عليه وسلمص نبيًا ورسولًا - موجودون، ويزيدون على البليون عدًا[5]، إنما النزاع والخلاف: هل يكونون أمة أو لا؟

والحق الذي لا ريب فيه: أن هذا السؤال لم يدر بخلد مسلم طوال القرون الماضية، قبل عصر الاستعمار الثقافي أو الغزو الفكري لعالم الإسلام.

فقد كان من البديهيات والمسلمات الأولية عند المسلمين، خاصتهم وعامتهم، عربهم وعجمهم، في كل بقاع الأرض: أنهم أبناء أمة واحدة هي أمة الإسلام، حتى غزتهم فكرة العصبيات الإقليمية والقومية، وهي فكرة مستوردة من أرض غير أرضهم، وتراث غير تراثهم، فأرادت أن تجعل الأمة الواحدة أممًا، تتنافس، بل تتجافى، بل تتعادى، بل تتقاتل.

* * *

(5) أحدث الإحصاءات: أن المسلمين في العالم بلغوا - وربما جاوزوا - البليون وربع البليون (أي 1250) مليونًا من البشر.

الأمة الإسلامية حقيقة بكل معيار

ومع هذه المحاولات الغازية نستطيع أن نقول: إن «الأمة» باقية، لم تمت، ولن تموت، وهي حقيقة لا وهم، هي حقيقة بمنطق الدين ... حقيقة بمنطق التاريخ ... حقيقة بمنطق الجغرافيا ... حقيقة بمنطق الواقع ... حقيقة بمنطق المصلحة ... حقيقة بمنطق الآخرين.

هي حقيقة بمنطق الدين:

الأمة الإسلامية حقيقة بمنطق الدين. فالقرآن الكريم هو الذي اعتبر المسلمين «أمة» بل «أمة واحدة»، ولم يعتبرهم «أممًا». وفي هذا يقول الله تعالى: {**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ**} [البقرة: 143]، وقال سبحانه: {**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ**} [آل عمران: 110]، وقال عز وجل: {**إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ**} [الأنبياء: 92]، وقال تنت: {**وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ**} [المؤمنون: 52].

وفي السنة النبوية أحاديث جمة تتحدث عن الأمة مضافة إلى النبي صلى الله عليه وسلمص أو معرفة بالألف واللام. منها قوله: «**مثل أمتي كالمطر، لا يدري أوله خير أم آخره**»[6]، «**لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق**»[7]،

---

(6) رواه أحمد والترمذي عن أنس، وأحمد وابن حبان عن عمار، وأبو يعلى عن علي، والطبراني وأبو نعيم في «الحلية» عن ابن عمر، والطبراني عن ابن عمرو كما في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (5854).

(7) الحديث متفق عليه، ومستفيض عن عدد من الصحابة: المغيرة بن شعبة، ومعاوية، وثوبان، وجابر، وعقبة بن عامر، وعمر، وأبي هريرة، وعمران بن حصين، وقرة بن آياس وغيرهم. انظر: «صحيح الجامع الصغير» (7296-7287).

«فضلت هذه الأمة على سائر الأمم»[8]، **«كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»**[9]، **«إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة»**[10].

ومن تتبع ما ورد في «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي» وجد الكثير الكثير.

هي حقيقة بمنطق التاريخ:

والأمة الإسلامية حقيقة كذلك بمنطق التاريخ: فقد ولدت هذه الأمة مع الإسلام، ونمت بنموه واتسعت بانتشاره، وحملت مواريث رسالات السماء، وقيم حضارات الأرض، وظلت هي الأمة الأولى في العالم قرابة ألف عام، امتدت فيها إلى الصين شرقًا، والأندلس غربًا، يحكمها خليفة واحد في معظم الأحيان، أو أكثر من واحد في بعض الأحيان، أو ينشق عنها بعض أصحاب النزعات الانفصالية، اتباعًا لهوى، أو تحقيقًا لكسب خاص، أو استجابة لكيد عدو ماكر.

ولكن برغم هذه النتوءات لم يزايل أبناءها الشعور العام بأنهم أمة واحدة، وأن مصيرهم واحد، وأن عدوهم واحد، وأن مصلحتهم واحدة، وأن خلاصهم في الاتحاد والتضامن، وهلاكهم في الاختلاف والتفرق والتنازع، وهو ما حذر منه كتابهم وسنة نبيهم، قال تعالى: {**وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ**} [آل عمران: 103]، {**وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُم**} [الأنفال: 46]،

---

(8) رواه أحمد عن حذيفة موقوفًا (383/5).

(9) رواه البخاري عن أبي هريرة.

(10) رواه الترمذي والطبراني والحاكم والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عمر. «صحيح الجامع الصغير» (1848).

وفي «الصحيح»: «**ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»[11].

وهكذا عاش المسلمون لا يعرفون جنسية إلا الانتماء إلى الإسلام، وقانون «الجنسية» الحديث لم يعرفه المسلمون إلا منذ نحو سبعين عامًا.

إن الذي ثأر لمصر وكرامتها من جيش نابليون الذي اقتحم بخيله الأزهر، كان طالبًا أزهريًا من حب، هو «سليمان الحلبي»، والذي أيقظ الشرق العربي، وأوقد فيه الشرارة ضد الاستعمار رجل قدم من أفغانستان، هو «جمال الدين الأفغاني»، وقبل ذلك الذين قادوا معارك التحرير لطرد الصليبيين وإنقاذ القدس الشريف، لم يكونوا عربًا، بل منهم التركي مثل «عماد الدين زنكي»، وابنه «نور الدين»، أو الكردي مثل «صلاح الدين الأيوبي».

هي حقيقة بمنطق الجفرافيا:

وهي حقيقة بمنطق الجغرافيا، فالأمة الإسلامية تعيش في أقطار متصلة متشابكة، بعضها موصول ببعض، من «جاكارتا» شرقًا إلى «رباط الفتح» غربًا، أو من المحيط إلى المحيط، أي من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي.

ومن رأى خارطة للعالم الإسلامي وجد «اللون الأخضر» - الذي يرمز إلى العالم الإسلامي، أي البلاد ذات الأغلبية المسلمة - متصلًا متماسك الحلقات، وذلك أن امتداد الإسلام كان امتدادًا طبيعيًا، يدخل البلد فيؤثر فيما حوله، ومن حوله يمنة ويسرة، ثم ينتشر انتشار نور الفجر في الغسق، ما شاء الله له أن ينتشر فيما يحيط به وما يجاوره، شيئًا فشيئًا، حتى يعوقه عائق ما

---

(11) متفق عليه.

فيتوقف حتى تتاح له فرصة أخرى.

إن دار الإسلام على سعتها وتعدد أقطارها، تمثل وطنًا واحدًا مترابط الأجزاء، وتكاد الحدود السياسية بين بلدانه كلها تكون مصطنعة، وجلها من صنع الاستعمار الذي فرض التجزئة والتشرذم على دار الإسلام منذ احتلاله لها، وكان ذلك أكبر همه، ورأس طموحاته. ومن هنا كان وجود إسرائيل جسمًا غريبًا في كيان الأمة، وحاجزًا مصنوعًا بين شرقها وغربها.

هي حقيقة بمنطق ا لواقع:

وهذه الأمة حقيقة بمنطق الواقع. فالذي يقرأ واقع المسلمين بعمق يدرك - إن كان منصفًا - أن الشعور بوجود الأمة ووحدتها، والإحساس بآلامها وأفراحها، شعور سائد ومتغلغل في كيان أبنائها وأعماق وجدانهم، وخصوصًا في أوقات الشدائد والمحن، فهي التي تكشف الدفين، وتبرز المكنون.

لا أتحدث عن الحكام والمتسلطين، وعبيد الفكر الغربي، ممن انفصلوا عن ضمير أمتهم، وغرب الاستعمار الثقافي مشاعرهم، كما غرّب أفكارهم، إنما أتحدث عن جمهور الأمة العريض، من المثقفين وغير المثقفين الذين يخفون لنجدة كل منكوب، ومساندة كل مستضعف، ومعاونة كل ذي فاقة من أبناء الإسلام جيثما كانوا.

رأيناهم يتحرقون من أجل المسجد الأقصى، ويفرحون ويمرحون إذا حققت الانتفاضة نصرًا، ويحزنون ويبكون إذا مس رجالها قرح، رأيناهم يتجاوبون مع أبناء البوسنة والهرسك، يتبرع الرجال بالمال، والنساء بالحلي، ويطالب الشباب بالسماح له بالذهاب إلى أرض المعركة للمشاركة في

الجهاد، وتشتعل القلوب نارًا كلما سمعت باغتصاب المسلمات، أو قتل المدنيين العزل.

وقد حكى لي بعض الإخوة في هيئة الإغاثة بأوروبا: أن بعض المسلمين جاؤوهم بتبرعات عينية ونقدية للبوسنة، ثم طلبوا منهم أن يعلموهم الوضوء والصلاة، فلم يسبق لهم أن دخلوا مسجدًا قط، إنما حركهم ما شاهدوا في التلفاز من عدوان على حرمات إخوانهم!!

في يونيو - أو حزيران - سنة 1967 عقب النكبة الشهيرة، فُتح في قطر باب التطوع من أجل فلسطين، فكان أكثر الناس حماسًا، وأسرعهم إلى الاكتتاب: هم الإخوة الباكستانيون وفي مقابل هذه وجدنا الإخوة العرب يشاركون إخوانهم في أفغانستان، حين دعا داعي الجهاد باسم الإسلام، بل شارك معهم أفارقة وأوربيون وأمريكيون ممن شرح الله صدورهم بنور الإسلام.

إن الخطباء في كل جمعة يدعون الله تعالى، ويسألونه النصر والتمكين، وصلاح الحال لبلادهم وبلاد الإسلام كلها. ومن الأدعية المتوارثة: «اللهم اجعل بلدنا هذا آمنًا مطمئنًا سخاءً رخاءً، وسائر بلاد المسلمين»، ومنها: «اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين».

هي حقيقة بمنطق الآخرين:

بل نقول: إن الأمة الإسلامية حقيقة واقعة بمنطق أعداء المسلمين أنفسهم، فإذا كان من أبناء المسلمين، والمسمين بأسمائهم: من يجهل هذه الحقيقة، أو يتجاهلها، أو يحاول طمسها وجحودها لهوى في نفسه، فإن خصوم هذه الأمة يعرفون هذه الحقيقة حق المعرفة، وينظرون إلى المسلمين باعتبارهم أمة

ذات عقيدة واحدة، وفلسفة كلية واحدة، وقيم أساسية مشتركة، وأصول فكرية وخلقية جامعة، وتطلعت طموحة متلاقية.

ولهذا لا يلتفتون كثيرًا إلى التقسيمات السياسية التي صنعوها هم، ولا إلى الخصوصيات القومية، والاختلافات الإقليمية، والصراعات السياسية، والنزاعات الحدودية، وغيرها، مما يعلمون أن لهم في تأجيجه - بل في تكوينه في الأصل - بدًا لا تنكر، إنهم يعلمون أن «روح الأمة» شيء أعمق من هذه القشرة الظاهرية.

إنه شعور عميق بوجودها وخلودها ووحدتها ورسالتها، وهم يدركون جيدًا وجود هذا الشعور وتناميه يومًا بعد يوم، كلما عمت اليقظة، وعمقت الصحوة، وارتفعت راية الدعوة، إنهم لهذا يكيدون للصحوة في الشرق، ويعوقون مسيرتها في الغرب، حتى إن تمسك بعض التلميذات في مدرسة ما بالتزام الحجاب ليزلزل كيانهم، ويؤرق أجفانهم. وإن إنشاء «كلية أوروبية للدراسات الإسلامية» ليزعج كبارهم، ويروع صغارهم، وإن استقلال بلد مسلم صغير مثل «البوسنة» لم يكن أكثره يعرف من الإسلام إلا الشهادتين ليفزعهم، ويخلع قلوبهم. حتى أجمعوا أن يتعاونوا على إبادته كي لا يرتفع علم للإسلام في أوروبا، بعد أن طرد منها مرتين: مرة من الأندلس، ومرة من البلقان. حتى صرح زعيم روسي يميني في هذه الأيام هو «جرينوفسكى» بأن ما يقوم به الصرب «حرب مقدسة»!!

من أجل هذا تنادوا بالوقوف في وجه ما سموه «الخطر الأخضر» يعنون به الإسلام، بعد أن انزاح «الخطر الأحمر» بانهيار الاتحاد السوفيتي، وسقوط الشيوعية الماركسية في دولتها الأم، وفي أوروبا الشرقية، وبعد زوال «الخطر الأصفر» بالتقارب مع الصين. وليس هذا الأمر بجديد، فقد

حذروا من هذا الخطر من قديم.

ومن أوضح الكلمات المعبرة عن هذه الروح المتوجسة من قوة الإسلام ما نقله مؤلفا كتاب «التبشير والاستعمار»[12]عن بعض الأوروبيين:

«لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة، ولكنا - بعد اختبار - لم نجد مبررًا لهذا الخوف. لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودي، وبالخطر الأصفر، وبالخطر البلشفي «الشيوعي»، إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد ... ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا، أما الشعوب الصفراء، فهنالك دول ديمقراطية كبرى تقاومها، ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قوته على التوسع والإخضاع، وفي حيويته، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي».

إنهم لا ينظرون إلى واقع المسلمين المجزأ بالفعل، بل إلى الكيان الواحد القائم بالقوة، الكامن في أعماق القلب والوجدان.

منطق المصلحة والعصر:

على أنه لو لم يفرض علينا منطق الدين والتاريخ والجغرافيا والواقع ونظرة الآخرين إلينا أن نكون أمة بالفعل، لوجب علينا - تبعًا لمنطق المصلحة، ومنطق عصرنا نفسه - أن نخترع لنا أمة كبرى، نتكثر بها، وننضم إليها، ونحتمي بحماها، فمصلحتنا العليا توجب أن نبحث لنا عن تكتل كبير، نستكثر به من قلة، ونعتز به من ذلة، ونقوى به من ضعف، ونأمن به من خوف، كما قيل:

---

(12) تأليف الدكتور عمر فروخ، والدكتور مصطفى الخالدي.

ألـم تـر أن جمـع القـوم يخشـى وأن حـــريم واحـــدهم مبـــاح؟

إن التكتل ضرورة عسكرية، حتـى لا يؤكل المسلمون بلدًا بلدًا، كما يلتهم الرغيف لقمة لقمة.

تـأبى الرمـاح إذا اجـتمعن تكسـرا وإذا افتـــرقن تكســـرت أفـــرادًا

وهـو ضـرورة اقتصـادية، لأن الإنتـاج الصـغير لا يسـتطيع أن ينـافس أو يصـمد أمـام الإنتـاج الكبيـر، ومـن المسـتحيل أن نـدخل عصـر التكنولوجيـا المتطـورة فرادى مبعثرين، فـإن تكلفتهـا هائلـة، ولا يتحملهـا قطـر واحـد، وقـد رأينا الدول الصناعية تتعاون فيما بينهـا لإنتـاج طـائرة متطـورة، ذات إمكانـات خاصـة. ولهـذا قلنـا: إن منطـق عصـرنا يفـرض علـى المتشـابهين أن يتحـدوا ويتكتلـوا، وإلا سـحقتهم الكتـل الكبيـرة مـن حـولهم. فـلا مكـان فـي عـالم اليـوم للصغار والضعفاء.

إن العـالم يتكتـل اليـوم فـي أشـكال مختلفـة، يكمـل بعضـها بعضًـا: فـي شـكل تجمعات اقتصـادية كبـرى، وكثيـرًا مـا تتحـول هـذه التجمعـات الاقتصـادية إلـى تجمعات سياسية، فقلما ينفصل الاقتصاد عن السياسة.

لقد قيل قديمًا: من لم يكن له أهل فليصطنع أهلًا، أي عن طريق المصـاهرة أو الحلـف ونحـوه، ونحـن لنـا أهـل والحمـد لله، وأهلنـا هـم أمـة الإسـلام، فـلا منـاص لنـا مـن أن نتكتـل، حتـى نحـافظ علـى وجودنـا، ونعمـل علـى تطـوير أنفسنا، وهذا التكتل لم يعد نافلة، بل تأكد أنه فريضـة، بـل هـو كمـا أقـول دائمًـا: فريضة وضرورة، فريضة يحتمها الدين، وضرورة يحتمها الواقع.

لقد أثبتت محنة الخليج وما صحبها من آثار مدمرة لمادياتنا ومعنوياتنا، أننـا - نحن العرب والمسلمين - نعاني في حياتنا خللًا قاتلًا، ونشكو فراغًـا هائلًا، وأن هذا الخلـل يجـب أن يسـد، وأن هـذا الفـراغ يجـب أن يمـلأ، وإلا واجهتنـا

الأزمات الكبرى التي لا نجد لها حلًا.

ذلك أن أساس المشروعية لدولنا الإقليمية والقومية، الحديثة المعاصرة، التي تضمها جامعتنا العربية، أو ينتظمها ما سمي «منظمة المؤتمر الإسلامي» أساس واهٍ ضعيف، من وجهة النظر الإسلامية الخالصة. وفي أول تجربة أو امتحان، اهتز هذا الأساس، بل أوشك أن ينهار، لأنه يفتقد المشروعية العقائدية العليا التي تسنده، وتمنحه مبرر الوجود والبقاء.

لقد كان للمسلمين خليفة يناديهم في الأزمات أن هبوا، وكان يستنصر به المستضعفون إذا أغير عليهم، ويحسب حسابه الخصوم إذا فكروا في اقتحام حماهم.

واليوم لم يعد لهم خليفة يمثلهم، ولا لهم «بابا» كـ «بابا النصارى»، فلا قيادة سياسية، ولا قيادة دينية. لقد ضيع المسلمون الخلافة، ولم يستطيعوا أن يوجدوا نظامًا بديلًا. والعيب هنا عيب المسلمين، لا عيب الإسلام، فالإسلام قد وحد الأمة، وشرع لها ما يحقق وحدتها ويصونها.

* * *

أمة واحدة ذات شعوب متعددة

المسلمون- في نظر الدين- أمة واحدة، ذات شعوب متعددة بتعدد الجناس واللغات والأوطان، كما قال تعالى: {**وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ**} [الحجرات: 13].

وتعدد الشعوب في الأمة المسلمة لا يجعل منها مشكلة إذا كان الإسلام هو الموجه لها، والحاكم لتصرفاتها، فالإسلام يذيب الفوارق بين هذه الشعوب، بعقائده وقيمه وأحكامه وآدابه، ويصهر الجميع في بوتقته، ويكون اختلافهم في هذا الحال اختلاف تنوع وإثراء لا اختلاف تضاد وتصارع، فإن ولاء الجميع لله ولرسوله ولجماعة المؤمنين، واعتزاز الجميع بالدين الذي أكرمهم الله به، وارتضاه لهم منهاجًا، وارتضاهم له جنودًا: {**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا**} [المائدة: 3].

ولا ينبغي أن يضيق الوطنيون والقوميون المخلصون بالانتماء إلى الأمة الإسلامية، فإن الانتماء إلى الأمة الكبرى لا يلغي الانتماء إلى الأوطان أو الأقوام، ولا ينكر الإسلام حب الإنسان لوطنه، أو قومه، فهذا أمر فطري والإنسان ينتمي إلى دوائر متعددة تتداخل وتتكامل ولا تتناقض.

وقد كان الصحابة ينتمون إلى أقوامهم وقبائلهم بلا حرج، فسلمان الفارسي، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وآخرون: قرشي وأوسي وخزرجي وغفاري ودوسي ... إلخ.

وقد قلت في ندوة «الصحوة وهموم الوطن العربي» في عمان (سنة 1987): إنني أنتمي في وقت واحد إلى عدة دوائر، لا أجد بينها أي تضاد، فأنا أنتمي إلى أسرتي «القرضاوي»، وإلى قريتي الصغيرة «صفط تراب»،

وإلى محافظتي «الغربية»، وإلى وطني الصغير «مصر»، وإلى وطني الكبير «بلاد العرب»، وإلى وطني الأكبر «دار الإسلام». فأنا قرضاوي، صفطاوي، غرباوي، مصري، عربي، مسلم. وأنا كذلك أزهري بحكم دراستي، جامعي بحكم مهنتي، إفريقي بحكم قارتي، إسلامي بحكم وجهتي، عالمي بحكم رسالتي، ولا تنافي بين هذا كله، ولا تناقض بين الوطنية والقومية والإسلامية والعالمية إذا وضع كل منها في موضعه الصحيح، إنما ترفض الوطنية والقومية إذا جعلناها بديلًا عن الإسلام، أو طعمناها بعناصر غريبة عنها معادية للإسلام، أو مناقضة لعقيدته أو شريعته، مثل «العلمانية» و«الماركسية»، وهذه وتلك ليست عنصرًا من عناصر تركيب الوطنية ولا القومية، فإن كلتيهما لا تتضمن محتوى أيديولوجيا معينًا.

والانتماء إلى الأمة الإسلامية يستوعب المسلمين وغير المسلمين، فهم جميعًا من أهل دار الإسلام كما يقرر الفقهاء. وهذا ما فهمه الوطنيون المخلصون من أهل الكتاب مثل الوطني المعروف «مكرم عبيد» في مصر الذي قال: أنا نصراني دينًا مسلم وطنًا، وهذا ما قلته للدكتور «لويس عوض» حين طلب مني التعقيب على كلمته عندما زار قطر منذ سنوات. قلت له: أنت مسلم بحكم الثقافة والحضارة، وإن لم تكن مسلمًا بحكم الدين والعقيدة.

إن الإسلامي الحق: وطني مخلص، وقومي مناضل، وعالمي أصيل، وأبطال الوطنية الأوائل في بلادنا كانوا إسلاميين، مثل الأمير عبد القادر في الجزائر، وأحمد عرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد في مصر، وعمر المختار في ليبيا، وعبد الكريم الخطابي في المغرب، وأمين الحسيني في فلسطين، ومحمد ناصر في أندونيسيا، وأبو الكلام آزاد في الهند، وغيرهم وغيرهم.

صلة العروبة بالإسلام:

وللعروبة - خاصة - صلة وثيقة بالإسلام فهي وعاء حضارته، ولسان ثقافته، ولغة عبادته، ودار مقدساته، ومثوى نبيه، ومنطلق دعوته إلى العالم، والعرب هم عصبة الإسلام، وحملة رسالته الأولون، ونقلة قرآنه، ورواة سنته، ومعلمو الأمم التي دخلت مختارة في دين الله.

وفي مصر وبلاد المغرب العربي كله، لا يفرق الناس بين العروبة والإسلام، ولا بين العرب والمسلمين، وإذا قال الخطيب في المسجد: اللهم انصر العرب، فهي تساوي: اللهم انصر المسلمين، والعكس كذلك. وقد عبر عن هذا الشاعر المصري محمود غنيم رحمه الله بقوله:

إن العروبة لفظ إن نطقت به فالشرق والضاد والإسلام معناه

كلمات مضيئة لحسن البنا:

ولم أجد في المجددين الإسلاميين من فقه هذا المعنى، وعبر عنه بغاية الوضوح في بيان مقنع ورائع، مثل الإمام حسن البنا رحمه الله.

وحسبي هنا أن أنقل فقرة من كلامه في «رسالة المؤتمر الخامس»، حيث يتحدث عن موقف الإخوان من الوحدة الوطنية - وكانت تسمى حينذاك «الوحدة القومية» - والوحدة العربية، والوحدة الإسلامية. وبدأ الحديث عن الوحدة الوطنية، حيث يظن كثير من الناس أن تمسك الإخوان بالفكرة الإسلامية، يمنعهم من الإخلاص للناحية الوطنية فيقول:

«إن الإسلام قد فرضها فريضة لازمة، لا مناص منها: أن يعمل كل إنسان لخير بلده، وأن يتفانى في خدمته، وأن يقدم أكثر ما يستطيع من الخير للأمة التي يعيش فيها، وأن يقدم في ذلك القرب فالأقرب رحمًا وجوارًا، حتى

إنه لم يجز أن تنقل الزكوات أبعد من مسافة القصر - إلا لضرورة - إيثارًا للأقربين بالمعروف. فكل مسلم مفروض عليه أن يسد الثغرة التي هو عليها، أن يخدم الوطن الذي نشأ فيه، ومن هنا كان المسلم أعمق الناس وطنية، وأعظمهم نفعًا لمواطنيه، لأن ذلك مفروض عليه من رب العالمين، وكان الإخوة المسلمون بالتالي أشد الناس حرصًا على خير وطنهم، وتفانيًا في خدمة قومهم، وهم يتمنون لهذه البلاد العزيزة المجيدة كل عزة ومجد، وكل تقدم ورقي، وكل فلاح ونجاح، وقد انتهت إليها رئاسة الأمم الإسلامية بحكم ظروف كثيرة تضافرت على هذا الوضع الكريم. وإن حب المدينة لم يمنع رسول الله صلى الله عليه وسلمص أن يحن إلى مكة وأن يقول لأصيل، وقد أخذ يصفها: «**يا أصيل دع القلوب تقرّ**»، وأن يجعل بلالًا يهتف من قرارة نفسه:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد، وحولي إذخر وجليل!

وهل أردن يومًا مياه مجنة وهل يبدون لي شأمة وطفيل؟

فالإخوة المسلمون يحبون وطنهم، ويحرصون على وحدته القومية بهذا الاعتبار، ولا يجدون غضاضة على أي إنسان أن يخلص لبلده، وأن يفنى في سبيل قومه، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وكل عز وفخار. هذا من وجهة القومية الخاصة».

ثم يتحدث عن الوحدة العربية فيقول:

«ثم إن الإسلام الحنيف نشأ عربيًا، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه الكريم بلسان عربي مبين، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين. وقد جاء في الأثر: إذا ذل العرب ذل الإسلام، وقد تحقق هذا المعنى حين ذل سلطان العرب السياسي، وانتقل الأمر من

أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم، فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه.

وأحب هنا أن أنبه إلى أن الإخوان المسلمين يعتبرون العروبة، كما عرفها النبي صلى الله عليه وسلمص فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «**ألا إن العربية اللسان، ألا إن العربية اللسان**».

ومن هنا كانت وحدة العرب أمرًا لابد منه لإعادة مجد الإسلام، وإقامة دولته، وإعزاز سلطانه، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها، وهذا هو موقف الإخوان المسلمين من الوحدة العربية»[13]

لماذا حدثت الجفوة؟

وإنما حدثت الجفوة بين العروبة والإسلام بدخول الغلاة من الفريقين في الميدان، فساء ظن كل منهما بالآخر، وساء تفسيره لفكرته، فرأينا في القوميين من يعتبر القومية العربية «نبوة جديدة» للعرب، ومن يعتبر الإسلام مجرد «انتفاضة عربية»، ومن يجعل القومية فوق الدين، ومن يقول في شعره:

سلام على كفر يوحد بيننا وأهلًا وسهلًا بجهنم!!

ورأينا في الإسلاميين من يعتبر القوميين كلهم من هذا الصنف المذكور، ولا يفرق بين فصيل وفصيل، ويعتبر القومية كلها جاهلية، ولقد حدثت

---

(13) من رسالة المؤتمر الخامس ضمن مجموعة الرسائل (141)، (142)، وانظر أيضًا: رسالة «دعوتنا»، ورسالة «دعوتنا في طور جديد»، وانظر فصل «مصرية ... عربية ... إسلامية» من كتابنا «الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه» (ص198-203)، طبع مكتبة وهبة بمصر، والرسالة ببيروت.

لقاءات وندوات للحوار بين الإسلاميين والقوميين قربت بين المنصفين والمعتدلين من التيارين، وتفهم كل طرف ما عند الآخر، والتفهم إذا اقترن بالإنصاف كثيرًا ما يؤدي إلى التقارب والتواصل، بدلًا من التجافي والتقاطع.

خطر الصراع الجديد:

على أن الصراع الآن ليس بين العروبيين والإسلاميين، فإن هناك خطرًا داهمًا يهدد الفريقين جميعًا، وهو الخطر الصهيوني الذي يشحذ أسلحته لغزو المنطقة، اقتصاديًا وثقافيًا، والهيمنة عليها، وحذف العنوانين معًا: الإسلام والعروبة، وإظهار اسم جديد هو «الشرق الأوسط» فلا يبقى اسم هذه المنطقة: العربية أو الإسلامية، بل «الشرق أوسطية» التي يكون لإسرائيل فيها نصيب الأسد، وموقع القيادة والتحريك.

ومما يؤسف له: أن نجد بعض الكبار في ديارنا يدور في هذا الفلك، ويدعو لهذا التوجه دونما وجل ولا خجل! بل وجدنا أحد الوزراء المسؤولين في بلاد الخليج العربي، يحطب في هذا الحبل، ويروج لهذه البضاعة الجديدة المشبوهة، في صراحة غريبة تحسد عليها!!

يقول الوزير [14]: «لا شيء اسمه «عروبة»! خيال هذا الذي يطلقون عليه «القومية العربية»! هذه كلها أحلام خلقناها وصدقناها، ونجري وراءها، بينما التاريخ والواقع والحقائق تثبت خطأها وعدم جدواها»!!

وأكثر من ذلك ما أجاب به عن سؤال عن هذه «الموجودات» التي تسمى «الجامعة العربية» أو «مجلس التعاون الخليجي» و«إعلان دمشق» وغيرها من الكيانات وهي كثيرة، يقول الوزير: «الحقيقة المؤكدة، والواقع الثابت، هو

(14) هو السيد يوسف العلوي وزير خارجية سلطنة عمان.

أن هناك كيانًا كبيرًا يسمى «الشرق الأوسط» وهو الموجود في ملفات القوى العظمى والمتوسطة، وفي وزارات الخارجية والدفاع، وهو الذي توضع له الخطط، ويجري التعامل معه ...» إلخ.

وأدهى من ذلك وأمر أن يقول الوزير العربي: «إن اللغة العربية هي سبب تفككنا في حين يظن البعض أنها الجامع والرابط بين البلدان العربية والشعوب العربية»!!! اللغة العربية - لدى الوزير الجريء - هي لغة الركون إلى الماضي، هي لغة الجمود وبطء الحركة، بما تحمله من بلاغة وبيان فارغ من أي مضمون[15]!!!

أرأيت كيف تصنع الهزيمة النفسية بأصحابها؟ أنهم - تحت شعار الواقعية - يتنازلون عن كل شيء، ويتخلون عن كل عزيز، وينسلخون من جلودهم، لينفذوا ما تحويه ملفات القوى الكبرى، وما تخطط له وزارات الخارجية والدفاع، وما تحلم به إسرائيل!

إن الوطن والقوم واللغة والتراث والدين والتحرر والوحدة ... وكل المقدسات: ألفاظ لا معنى، وأوهام لا صلة لها بالواقع. أما الواقع الماثل بالفعل فهو الشرق الأوسط، وإسرائيل، فليكن هذا هو الواقع، فلماذا نستسلم له ولا نجاهد لتغييره؟ لقد كانت إسرائيل حلمًا في حكم المستحيل، فأصبح واقعًا يتحدانا، فلماذا نحرم أنفسنا أن «نحلم» بتغيير واقعنا الأسود، كما غير الآخرون؟

كل رسالات السماء، ونهضات الأرض، إنما قامت لتغيير الواقع، وتحقيق واقع أفضل، والمفارقة العجيبة هنا: أن إسرائيل وحدها من حقها أن تحلم

---

(15) انظر صحيفة «الجمهورية» القاهرية في 1994/1/13، مقال الأستاذ محفوظ الأنصاري، حلقة نقاش.

وتحقق، ونحن ليس من حقنا مجرد أن نحلم!، من حق إسرائيل أن تتحرك بأحلام التوراة، وليس من حقنا أن نتحرك بوعود القرآن! من حق إسرائيل أن تفرض هويتها الدينية والقومية بحد الحسام، أما نحن فليس من حقنا أن ندافع عن هويتنا بمحض الكلام! من حق إسرائيل أن تحيي العبرية الميتة، ومن واجبنا نحن أن نميت العربية الحية!

ذل مـن يغـبط الـذليل بعـيش   رب عـيش أخـف منـه الحمـام!

مـن يهـن يسـهل الهـوان عليـه   مـا لجـرح بميـت إيـلام!

* * *

لماذا لا يتحد المسلمون؟

وإذا كان اليهود قد حلموا بقيام دولة لهم تحيي تراثهم وتجمع شتاتهم، ثم حولوا الحلم إلى حقيقة، فأولى بالمسلمين أن يسعوا إلى توحيد أمتهم الكبرى بكل تياراتهم، حتى القوميون المخلصون ينبغي أن يحرصوا على توحيد الأمة الإسلامية بصورة من الصور، فهي ظهير قوي للعرب، بل إن الإسلام عرب عواطفهم، فجعلهم يحبون العرب، ولسان العرب، وأرض العرب، لأن رسولهم عربي، وقرآنهم عربي، وكعبتهم عربية.

ولا غزو أن يكون المسلمون أمة واحدة، فإن ربهم واحد، ورسولهم واحد، وكتابهم واحد، وقبلتهم واحدة، وشعائرهم واحدة، وشريعتهم واحدة، وفلسفتهم الأساسية عن الدين والحياة والله والإنسان واحدة.

ومن شأن هذا كله أن يوحدهم في العقيدة والوجهة، ويوحدهم في النظرة والفكرة، ويوحدهم في الولاء والبراء، وفي المودة والعداء، والذي أعنيه هنا هو: التوحيد في الكليات والأساسيات لا في الجزئيات والتفصيلات، فإن هذه تختلف باختلاف الاجتهادات، وتعدد بتعدد زوايا النظر، وتغير الزمان والمكان والإنسان، والاختلاف هنا سعة ورحمة إذا صدقت النيات، وفهم الاختلاف على وجهه، فلم يؤد إلى تفرق ولا عداوة بين المختلفين.

وقد ربط القرآن بين المسلمين برباط لا ينفصم، وهو رباط الإخوة الإيمانية، قال تعالى: {**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**} [الحجرات: 10]، ومعنى هذا: أنه لا يتحقق الإيمان بغير الأخوة، ولا معنى للأخوة إذا لم يشعر الأخ بآلام أخيه وهمومه. فالمسلم في أمته عضو في جسد حي، يأخذ منه ويعطيه، ويحيا به، ويصح بصحته، ويسلم بسلمه. وقد صور هذا الحديث المتفق عليه: «**ترى**

المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر»[16].

وهذا التعاطف والتراحم يقتضي أن يثمر تعاونًا وتساندًا صوره النبي صلى الله عليه وسلمص بقوله: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»، وشبك بين أصابعه[17]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه**»[18] أي لا يخذله ولا يتخلى عنه.

ولم يكتف الإسلام من المسلمين أن يكونوا أمة واحدة، في الأفكار والمشاعر، والشعائر والتقاليد، ثم يدعهم بعد ذلك متفرقين في سياساتهم، مختلفين في أنظمتهم، متباينين في مصالحهم، متنابذين في ارتباطاتهم وولاءاتهم، هذا يشرق وهذا يغرب، وهذا يتجه إلى اليمين، وذاك إلى اليسار، وهذا يوالي زيدًا، والآخر يوالي عمرًا. وبهذا تتناقض مصالحهم، وتتضارب اتجاهاتهم، وتتباعد ولاءاتهم، وتتناكر سياساتهم، حتى يغدو بعضهم خصمًا لبعض، بدلًا من أن يكون بعضهم أولياء بعض، بل إن بعضهم قد يستعين بالعدو الكافر على أخيه المؤمن.

وهذا شر ما تصاب به الأمة: أن «يجعل الله بأسها بينها»، كما جاء في الحديث الصحيح، أو كما عبر كتاب الله تعالى: {**أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ**} [الأنعام: 65]، ذكر القرآن ذلك في معرض العقوبات السماوية التي

---

(16) ذكره مسلم: كتاب البر والصلة (66)، (67)، والطيالسي: (790)، (793).

(17) ذكره البخاري: كتاب المظالم، باب: نصر المظلوم، ومسلم: كتاب البر والصلة (65)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في شفقة المسلم على المسلم (1993)، وقال: هذا حديث صحيح، وأحمد في «مسنده» (91/2)، (491/3)

(18) ذكره البخاري: كتاب المظالم، باب: لا يظلم المسلم ولا يسلمه، وأحمد في «مسنده» (311/2)، (279/5)

ينزلها الله بالأمم إذا أعرضت عن هداه كالعذاب من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، ومعنى جعل بأس الأمة بينها: ألا يتجه بأس الأمة إلى خارجها، إلى عدوها، بل إلى الداخل، إلى نفسها، فإذا كان من صفات الصحابة رضي الله عنهت أنهم: {**أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُم**} [الفتح: 29]، فإن من صفة هؤلاء أنهم أشداء على أنفسهم، رحماء مسترخون مع عدوهم.

وأكثر من هذا: أن يعادي بعضهم بعضًا، بل يحارب بعضهم بعضًا. وهو ما حذر منه الرسول الكريم في حجة البلاغ أو الوداع، في بيانه العام للأمة في الشهر الحرام والبلد الحرام حين قال: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[19].

كما حذر القرآن من مكايد أعداء المسلمين الذين لا يسرهم أن يروهم كالبنيان المرصوص، أو الجسد الواحد، فقال سبحانه: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ**} [آل عمران: 100]، وسبب نزول الآية يبين أن المعنى: يردونكم بعد أخوتكم متعادين، وبعد اتحادكم وتلاحمكم متفرقين متمزقين، وحتى لا يحدث هذا التمزق في الأمة المسلمة، شرع لها الإسلام نظامًا محكمًا، يجمع شملها، وينظمها في عقد متماسك الحبات، يجسد وحدتها العقدية والروحية والفكرية في وحدة سياسية عملية، ويجعل منها كيانًا واحدًا قويًا كبيرًا، كيانًا دينيًا واجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا.

ملاك الوحدة أمور ثلاثة:

وملاك هذا النظام الذي يضبط هذا الكيان الواحد أمور ثلاثة:

---

(19) متفق عليه، كما في «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» عن جرير بن عبد الله (44)، وعن ابن عمر (45).

الأول - وحدة دار الإسلام:

الأمر الأول: وحدة دار الإسلام، فالمسلمون لهم دار واحدة وإن تعددت أقاليمها، وتنوعت عناصر سكانها، واختلفت ألسنتهم وألوانهم، فهم أسرة واحدة تسكن هذه الدار وإن تناءت أطرافها، واتسعت أقطارها، وهم - كما سماهم الله ورسوله - إخوة «**يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليه أقصاهم، وهم يد على من سواهم**»[20].

وعليهم - بالتضامن والتعاون - أن يحموا هذه الدار من كل عدوان، وأن يقووها حتى لا يطمع فيها طامع، ولا ينفذ إليها عدو، فإن غزا أحد أعدائها جزءًا منها، فرض على أهله فريضة عينية أن يقاوموه، حتى يخرج مهزومًا مدحورًا، وعلى جميع المسلمين معاونتهم بكل ما يستطيعون، الأقرب فالأقرب، حتى يشمل الأمة جميعًا، عند الحاجة.

الثاني - وحدة المرجعية العليا:

والأمر الثاني: وحدة المرجعية العليا، التي تتجلى في الاحتكام إلى الكتاب والسنة، في ضوء اجتهاد معاصر قويم، يصل الحديث بالفقه كما يصل الفقه بالواقع، ويزاوج بين كليات المقاصد وجزيئات النصوص، ويميز بين الثابت والمتغير، بين القطعي والظني، بين المنطقة المغلقة والمنطقة المفتوحة، وهي معظم أحكام الشريعة، مقدرًا أن للضرورات أحكامها، وأن الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر.

وينبغي أن يتمثل هذا الاجتهاد في صورة جماعية على مستوى الأمة، في صيغة «مجلس للمجتهدين» ينظر في الاجتهادات القديمة، ليرجح منها

---

(20) جزء من حديث رواه أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو. «صحيح الجامع الصغير» (6712).

ويختار، وفي المشكلات الحديثة، ليحكم في شأنها، وفق معايير منضبطة، لا أهواء منفرطة، سواء في اجتهاده الترجيحي الانتقائي أم اجتهاده الإبداعي الإنشائي، ودون تعصب لرأي قديم، ولا عبودية لفكر جديد.

الثالث ـ وحدة القيادة المركزية:

والأمر الثالث: وحدة القيادة المركزية، أو الرئاسة العامة للأمة كلها، وهي التي تتمثل في «الخليفة» أو «الإمام» الذي ينوب عن رسول الله صلى الله عليه وسلمص في إقامة الدين وسياسة الدنيا به، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلمص يشدد في إيجاب الوحدة، ولزوم الجماعة، والتحذير من الشذوذ والفرقة. حتى إنه يوجب استعمال القوة للحفاظ على وحدة الأمة، ووحدة قيادتها، فقد قال: «**إذا بويع خليفتان، فاقتلوا الآخر منهما**»[21]، وتنصيب هذا الإمام أو الخليفة واجب شرعي، أجمعت عليه الأمة كلها، على اختلاف مذاهبها، والنبي صلى الله عليه وسلمص يقول فيما رواه الإمام مسلم في «صحيحه»: «**من لقي الله وليس في عنقه بيعة لإمام مات ميتة جاهلية**».

والصحابة رضي الله عنهت قدموا نصب الخليفة ومبايعته على دفن رسول الله صلى الله عليه وسلمص إيمانًا منهم بأن هذا أمر لا يقبل التسويف والتأجيل. والخلافة أو الإمامة بهذه الصورة ليست مجرد سلطة تحكم بما أنزل الله، وتتخذ الإسلام منهاج حياة في إقليم من الأقاليم. فهذا لا يخرج عن كونه ولاية إسلامية، إنما الخلافة تعني قيادة الأمة المسلمة الواحدة بشريعة الإسلام.

قد تختلف صورة الوحدة وتتنوع، كما وقع قديمًا، ووقع حديثًا ويقع اليوم، وحدة اندماجية، فيدرالية، كونفيدرالية ... إلخ. المهم أن تتحقق هذه الأمور

(21) رواه أحمد ومسلم عن أبي سعيد. «صحيح الجامع الصغير» (421).

الثلاثة: وحدة دار الإسلام، ووحدة الرئاسة أو القيادة المركزية، ووحدة المرجعية العليا، وهنا لا يوجد للتنازع على «الحدود» أو التقاتل عليها، كما هو حادث الآن، إذ الجميع أجزاء من كل، وأقطار في وطن واحد، أو دار واحدة، أو دولة واحدة. ولو فرض أن حدث نزاع من هذا النوع، فإن حكم الإمام أو الخليفة يرفع الخلاف، ويزيل النزاع، وقد يكون هذا الحكم بواسطة «محكمة عدل إسلامية» يأمر الإمام بتكوينها، لتفصل في أمور الخلاف. وإذا كان القرآن قد أمر بالتحكيم في أمر الخلاف أو الشقاق بين الزوجين: {**فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَا**} [النساء: 35]، فأمر الأمة أحق وأولى وأعظم.

كما لا توجد هنا مشكلة الأغنياء والفقراء في توزيع الثروة. فإن ظهور ثروة طبيعية ضخمة كالنفط في جزء معين لا يعني أنها ملك هذا الجزء أو هذه المنطقة وحدها، بل هو ملك الأمة كلها، وإن كانت المنطقة التي تظهر فيها الثروة تنعم بخيرها أكثر من غيرها بطبيعة الحال، كما هو مشاهد في العالم كله، حتى داخل الدولة الواحدة.

خسارة الأمة بهدم قلعة الخلافة:

هذا هو نظام الخلافة أو الإمامة العظمى، الذي عرفه المسلمون منذ عهد أبي بكر الصديق والخلفاء الراشدين ومن بعدهم من الأمويين والعباسيين والعثمانيين، إلى أن جاء «أتاتورك» فاجترأ على هتك هذه المظلة الإسلامية، وتهديم هذه القلعة التاريخية، وأعلن في يوم أسود من سنة 1924 إلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية، التي كانت تمثل آخر تجمع لأمة الإسلام تحت راية العقيدة، وكان يوم مأساة وحداد وأحزان في طول العالم الإسلامي وعرضه، عبر عنه أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته الشهيرة، التي نعى فيها الخلافة إلى الأمة، بعد أن ظنوا يومًا أن أتاتورك أحد أبطالها، حتى قال

لي شوقي نفسه يومًا:

يا خالد الترك جدد خالد العرب!

يقول شوقي في نعي الخلافة:

عادت أغاني العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت في يوم الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الإصباح
ضجت عليك مآذن ومنابر وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة، ومصر حزينة تبكى عليك بمدمح سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس: أمحا من الأرض الخلافة ماح؟!

ولابد للمسلمين أن يعملوا جادين لإحياد نظام الخلافة في صورة عصرية، مستفيدين من تجاربنا، وتجارب الأمم من حولنا، وإعادة الأمة إلى وحدتها، التي أثبتت الأيام حاجتهم الماسة إليها، فهي فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الشرع، وضرورة تحتمها الظروف.

الحوائل دون الوحدة:

أذكر أنني عندما زرت تركيا لأول مرة عقب حرب يونيو سنة 1967 - حرب الأيام الستة كما سموها، وانتصار إسرائيل السريع والساحق على العرب، فكان من الأسئلة المتكررة التي وجهت إلى:

لماذا هزم العرب - وهم نحو مائة وخمسين مليونًا - أمام إسرائيل وهي نحو مليونين؟ وبعبارة أخرى: لماذا انتصرت إسرائيل - وهي دولة واحدة - على بضع عشرة دولة تضمها الجامعة العربية!

وكان جوابي: إن إسرائيل انتصرت، وانهزمنا نحن لأسباب كثيرة أهمها اثنان:

أولًا: أنهم دخلوا الحرب يهودًا، ولم ندخلها نحن مسلمين، دخلوها ومعهم التوراة، ودخلناها وليس معنا القرآن!

ثانيًا: أنهم دولة واحدة، ونحن بضع عشرة دولة، إرادة واحدة، واضحة الهدف، محددة الوسيلة، أمام إرادات مختلفة متفرقة، غاب عنها الهدف، وضاع منها الطريق.

وقد سألني مندوب إحدى الصحف عن حكم الوحدة بين المسلمين في هذا العصر فقلت: إنها فريضة لازمة في كل عصر، ولكنها في هذا العصر أوجب وألزم.

قال: وما الذي يحول بين المسلمين والوحدة؟

قلت: حوائل كثيرة أهمها خمسة ...

1- العصبيات العرقية والإقليمية، التي جعلت كل مجموعة من المسلمين تعتز بقوميتها أو وطنها على حساب الانتماء إلى الأمة الكبرى، فهذا يدعو لقومية طورانية، وذاك يدعو لقومية عربية، وآخر لقومية هندية، أو فارسية ... إلخ.

2- اختلاف المذاهب والاتجاهات الأيديولوجية المستوردة من الغرب والشرق، من اليمين واليسار، فهذا استورد الديمقراطية الليبرالية، وذاك استورد الاشتراكية الثورية، هذا أخذ عن «روسو»، وذاك أخذ عن «ماركس» هذا كتابه المقدس «الأمير» لميكيافيلي، والآخر كتابه المقدس «رأس المال»، هذا اتجه إلى اليمين، وذاك اتجه إلى اليسار، واليمين واليسار مراتب ودرجات، فهناك يمين اليمين، ووسط اليمين، ويسار اليمين، كما أن هناك يمين اليسار، ووسط اليسار، ويسار اليسار، فكيف

يتوحد هؤلاء وأحدهم مشرق، والآخر مغرب؟

سارت مشرقة وسرت مغربًا شتان بين مشرق ومغرب!

وقد قال تعالى: {**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**} [الأنعام: 153].

3- اختلاف الولاءات، ما بين بلد وآخر، فهذا ولاؤه للندن، والثاني لباريس، والثالث لواشنطن، وآخرون ولاؤهم لموسكو أو بكين. وإذا لم يكن أصل الولاء لله ولرسوله، وللذين آمنوا، فلابد أن تتعدد الولاءات وتختلف، ويناقض بعضها بعضًا، تبعًا للمتولين ومصالحهم وأهوائهم: {**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُم**} [المائدة: 51].

4- اختلاف المصالح الإقليمية والمحلية، التي تشبث المنفعون بها، من ذوي السلطان، ومن يستظل بظلهم، ويدور في فلكهم، برغم استيقان الجميع أن الضرر كل الضرر، والخطر كل الخطر، في بقاء هذه التجزئة التي تهدم ولا تبني، وتضعف ولا تقوي، وتميت ولا تحيي، ولكن لا يريد أحد أن يضحي بسلطانه الضعيف الصغير من أجل سلطان أقوى وأكبر لأمته، لأن هنا ملك أو رئيس أو أمير، له شأن وهيل وهيلمان، وجيش وأعوان، ولن يكون له مثل ذلك في ظل الدولة الكبرى. فليحتفظ كل بسلطانه، وليقاتل دونه، وإن كانت مساحة سلطانه لا تكاد ترى على خريطة العالم إلا بالمجهر!

5- وهناك أمر خامس، أخر ذكره لأني أحرص دائمًا على تأكيد العوامل الداخلية والذاتية، وأعني به العامل الخارجي، الذي يتمثل في المكايد الأجنبية، من صهيونية، وصليبية، وإلحادية، ووثنية، ممن يهمهم أن يظل المسلمون متفرقين، بل متناحرين، وهؤلاء مهرة في بذر بذور الخلاف

بين الدول المنتسبة إلى الإسلام، وتهد هذه البذور بالسقى والتسميد، حتى تثمر ثمرها النكد، في تمزيق الأمة، إلى حد التعادي، بل التقاتل، من أجل حدود متنازع عليها، أو خلافات قديمة، يعملون على إحيائها وإذكائها، أو إثارة نزعات عنصرية، أو تعصبات إقليمية، أو اختلافات دينية أو سياسية، وهم لا يبالون باستخدام الدس والنميمة والكذب الصراح، وتسميم الآبار، ليقتتل الأخوة، وهم يتفرجون، فلا شيء عندهم حرام، والغاية عندهم تبرر الوسيلة.

* * *

مقومات القوة في الأمة

إن هذه الأمة المسلمة تملك من الطاقات والمقومات والإمكانات المادية والمعنوية، ما يجعلها في طليعة الأمم، ويمنحها مكانتها، كما أراد الله لها: {**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**} [آل عمران: 110]. من هذه المقومات.

القوة العددية:

فهذه الأمة تملك طاقة بشرية ضخمة، تقدر نحو مليار وربع المليار من المسلمين، في أنحاء العالم، وهي أمة خصبة ولود، فهي في زيادة وغيرها من الأمم في نقص مستمر، جعل بعض مفكريهم يتخوفون من مصيرها. وقد امتن الله بكثرة العدد، فقال على لسان بعض رسوله: {**وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ**} [الأعراف: 86].

ويقول الشاعر العربي قديمًا مفتخرًا بكثرة قومه:

ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا

وقال آخر:

وإنما العزة للكاثر!

صحيح أن العبرة ليست بالكم بل بالنوع. ولهذا حذر الحديث النبوي أمة الإسلام من عصر «**يوشك أن تتداعى فيه الأمم عليهم كما تتداعى الأكلة على قصعتها**» قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء، كغثاء السيل. ولنزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن**». قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «**حب**

الدنيا وكراهية الموت»[22].

شبههم مع كثرتهم بالغثاء الذي يحمله السيل من الحطب والقش والأوراق ونحوها، وكلها أشياء تشترك في أمور أربعة:

1- الخفة والسطحية.

2- عدم التجانس بينها.

3- فقدان الهدف والغاية من مسيرها.

4- فقدان الطريق المحدد لسيرها.

ففرق ما بين ماء النهر وماء السيل: إن ماء النهر له مصب معلوم، ومجرى مرسوم، أما السيل فلا تعرف له غاية، لا يعلم له خط. ولهذا يخرب ولا يعمر، ويفسد ولا يصلح. وكذلك شأن الأمة في «المرحلة الغثائية» من حياتها.

ولهذا ندعو إلى الاستفادة من القوة البشرية للأمة بحسن إعدادها، وتعليمها وتربيتها وتوثيق روابطها، وفتح المجالات لها، وربطها بأهداف كبرى تعيش لها وتجاهد في سبيلها، فتجد للحياة معنى وطعمًا، وتستعذب العذاب لتحقيق أحلامها وطموحاتها. كما فعلت الأمة في قرونها الأولى، حين أقامت دولة العدل والإحسان، وشدت حضارة العلم والإيمان.

وبجوارنا أمم كبرى كالصين، استغلت كثرة العدد في الزراعة والصناعة، وغزت العالم بمنتجاتها.

---

(22) رواه أحمد في «مسنده» (278/5)، وأبو داود في «سننه» (4297)، كلاهما عن ثوبان.

القوة المادية:

وتملك هذه الأمة الطاقة المادية والاقتصادية: فهي تملك مساحات شاسعة صالحة للزراعة لو وجدت من يحسن استغلالها بما يناسبها، من الغلات والمحاصيل والخضروات والفواكه وغيرها، وقد اختلفت بيئاتها وأنواع تربتها ومناخها، فما لا يصلح في أرض يصلح في أخرى، وما لا يجود في بيئة يجود ويمتاز في أخرى.

وهناك من المعادن والثروات المدفونة في باطن الأرض، وفي قلب البحار والأنهار والبحيرات ما لا يملكه غيرها، فمعظم نفط العالم في القرن القادم من مخزون عالمنا لإسلامي.

نعم لا ننكر أننا لا ننتفع كما ينبغي بهذه الطاقة الهائلة من الثروات الاقتصادية، فبعضها لا يزال بكرًا، وبعضها استخرجه الخواجات من أرضنا، فاشتروه منا «مادة خامًا» بأرخص الأسعار، ثم أخذوا بالشمال، ولكن هذا تم في حالة «غياب الأمة»، ونحن نتحدث عن حالة «حضور الأمة» التي تستطيع أن تقيم بينها تكاملًا اقتصاديًا، بحيث يتمم بعضها بعضًا، فهذه تغرس النخيل، وتلك تغرس الزيتون، وأخرى تزرع القمح، ورابعة تزرع جوز الهند ... إلخ، وهذه تتخصلى الله عليه وسلم في صناعة الأخشاب، وثانية في صناعة القطن والحرير، وثالثة في صناعة السيارات، وأخرى في صناعة السلاح، وهذه تصدر الثروة الحيوانية لتلك، وتستورد منها الماكينات، والأخرى تصدر النفط وتستورد القطن أو الصوف. لقد ذكرت بعض الدراسات التي صدرت من البنك الإسلامي للتنمية في أول سنة 1993 أن حجم التبادل بين جميع الأقطار الإسلامية لم يزد عن 8% (!!).

القوة الروحية:

تملك الأمة - قبل ذلك كله- القوة الروحية المستمدة من الرسالة التي أورثها الله إياها، وميزها بها عن سواها، ومنحها - وحدها- الوثيقة السماوية الوحيدة، التي تتضمن كلمات الله الأخيرة للبشرية، أعني القرآن العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي تولى الله حفظه، فلم ينقص منه جملة ولا كلمة ولا حرف: {**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ**} [الحجر: 9]

هذه الرسالة تتميز بالشمول الذي وصفه الشهيد حسن البنا بقوله: «إنها الرسالة التي امتدت طولًا حتى شملت آبار الزمن، وامتدت عرضًا حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقًا حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة».

وتتميز كذلك بالتوازن، فهي رسالة تصل الأرض بالسماء وتمزج المادة بالروح، وتربط الدنيا بالآخرة، وتدعم العلم بالإيمان، وتضم نور العقل إلى نور الوحي {**نُّورٌ عَلَىٰ نُور**} [النور: 35]. وبهذا تعطي الإنسان الدين ولا تسلبه الدنيا، وتمنحه الإيمان ولا تحرمه العلم، وتصله بالسماء ولا تنزعه من الأرض، وتطالبه بالواجب، ولا تأخذ منه الحق.

وتتميز هذه الرسالة بملاءمتها للفطرة السليمة، والعقل الرشيد، ومراعاتها للمصلحة، وتيسيرها على الناس، وتكليفهم ما تسعه طاقتهم، ورفع الحرج عنهم، وتقدير ظروفهم وضرورات حياتهم، ووضع الآصار والأغلال التي كانت عليهم، وكان من أبرز ما وصفت به رسالة نبيهم في كتب الأقدمين، أنه: {**يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِم**} [الأعراف: 157].

كما تتميز هذه الرسالة بسماحتها مع مخالفيها في الدين، فهي تعترف

بالآخر ولا تلغيه، ما دام لا يقاتلها في الدين ولا يظاهر عليها عدوًا[23].

ويرى القرآن أن اختلاف البشر في عقائدهم وديانـاتهم واقع بمشيئة الله تعالى، المرتبطة بحكمته: {**وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ 118 إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ**} [هود: 118، 119].

كما أن الحكم في هذا الاختلاف لا يفصل فيه في هذه الدنيا، بل يفصل فيه يوم القيامة: {**وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ 68 ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**} [الحج: 68، 69].

وقد وضع القرآن دستور العلاقة مع المخالفين في آيتين كريمتين من سورة الممتحنة: {**لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ 8 إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ**} [الممتحنة: 8، 9].

والبشرية أحوج ما تكون إلى هذه الرسالة الحنيفية السمحة، بعد أن أشقتها المادية المسرفة، والإباحية المتلفة، والعصبية المجحفة، ولكن الرسالة لا يقدمها إلا أمة تتمثلها وتجسدها في حياتها، فتقدم للناس «النموذج العملي» الذي يقتدى به فيهتدي، وإلا فإن فاقد الشيء لا يعطيه، وكان الأمر كما قال بشار، وقد استنجد به بصير - وهو أعمى- لبدله على الطريق، فقال:

أعمى يقود بصيرًا، لا أبًا لكمو قد ضل من كنت العميان تهديه!

* * *

(23) انظر في ذلك كتابنا: «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي».

شروط ضرورية لنجاح الأمة

وإنما تستطيع أن تثبت هذه الأمة وجودها، وتؤدي رسالتها، وتتبوأ مكانتها تحت الشمس، إذا تمسكت بما يلي:

تحديد الهوية وأساس الانتماء:

1- أن تحدد - بصراحة ووضوح - هويتها واساس انتمائها، ولا هوية لها بغير الإسلام، ولا انتماء لها إلى غير نسبه، فهو محور حياتها، وروح وجودها، وسر بقائها، وصانع حضارتها، ومكون وحدتها، وقد قال ابن الخطاب بحق: نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز من غيره أذلنا الله! وبهذا ترفض كل العصبيات العنصرية واللونية والإقليمية واللغوية والطبقية وغيرها، التي تفرق ولا تجمع، وتهدم ولا تبني.

تحديد المرجعية العليا:

2- ويترتب على هذا: أن تحدد المرجعية العليا لحياتها العقدية والتشريعية والثقافية والاجتماعية، التي يحتكم إليها الناس إذا اختلفوا. ويرجعون إليها إذا شردوا أو انحرفوا، وما دامت أمة مسلمة فلا مرجع لها غير الإسلام. ولا نعني به إسلام عصر من العصور، أو قطر من الأقطار، أو مذهب من المذاهب، إنما نعني به «الإسلام الأول»، إسلام القرآن والسنة، قبل أن تشوبه الشوائب، بعيدًا عن تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. الإسلام كاملًا شاملًا خالصًا، بلا زيادة عليه، ولا إنقاص منه، ولا تشويه له، ولا إخلال بنسبه.

فهو إسلام واحد معروف الأصول، بين الأهداف، واضح المصادر، لا

يقبل التقسيمات المبتدعة: حسب العصور، فإسلام أموي، وآخر عباسي، وثالث عثماني. أو حسب الأجناس فإسلام عربي، وأخر هندي، وغيره فارسي. أو حسب الأماكن، فإسلام إفريقي، وإسلام آسيوي. أو حسب الموضوعات، فإسلام روحي، وإسلام سياسي، فالإسلام هو الإسلام، كما أنزل الله في كتابه، وكما دعا إليه رسوله، وكما فهمه أصحابه، وكما عرفه خير قرون هذه الأمة. فلا مكان إذن لعلمانية دخيلة نبتت في أرض غير أرضنا، وصيغت لأمة غير أمتنا، لتحل مشكلة ليست هي أصلًا عندنا.

ضرورة الاجتهاد والتجديد:

3- أن ترفض الجمود والتقليد، وتؤمن بالاجتهاد والتجديد، وسيلة ضرورية لفهم مقاصد الإسلام ونصوصه، وتنزيلها على وقائع الحياة، مراعية ما قرره علماؤها من تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والعرف والحال، ولا توجد أمة حث دينها على الاجتهاد مثل هذه الأمة، حتى إن المتجهد فيها ليؤجر على خطئه في اجتهاده، فهو ليس مجرد معذور، بل هو عند الله مأجور، وإنما أجره لتحريه واستفراغه الواسع في طلب الصواب، وإن كان أجره دون أجر من أصاب الحق، فهذا له أجران، والأول له أجر واحد، كما صح في الحديث. هذا بشرط أن يكون الاجتهاد صادرًا من أهله في محله.

ولا غرو أن تنوعت المشارب، وتعددت المذاهب، واختلفت المدارس، وتعايشت جنبًا إلى جنب في ظل رحابة الإسلام، وسماحة الإسلام، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلمص بين للأمة شرعية التجديد في الدين، وذلك بحديثه الشريف: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد**

لها دينها»[24].

وليس معنى التجديد إظهار «طبعات جديدة» من الإسلام في كل قرن أو عصر، تتغير بتغير الناس وتتلون بتلون الحياة.

فالحق أن الإسلام - بأصوله الثابتة وأحكامه القطعية - هو الذي يلون الحياة، ويصبغها بصبغته {**صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً**} [البقرة: 138]، وهو الحاكم لا المحكوم، والميزان لا الموزون. وإنما التجديد هنا: تجديد الفهم للدين، وتجديد للإيمان به، وتجديد للعمل به والعمل له، وتجديده يعني العودة به إلى أقرب ما كان يوم ظهوره. فهذا هو معنى التجديد: الاجتهاد في العودة بالشيء إلى أصله، وليس تغييره بشيء آخر على أحدث طراز، فليس هذا من التجديد في شيء.

ولا يظنن ظان أن العودة بالدين إلى عصوره الأولى: عصور النبوة والصحابة وتابعيهم بإحسان، يتضمن تضييقًا أو تجميدًا أو تشديدًا على الناس.

كلا ... فقد عرفنا بالدراسة والمعايشة الطويلة لتراث الأمة: أن أكثر العصور مرونة وتوسعة وتيسيرًا ومراعاة للمقاصد، وتحررًا من الجمود والتزمت: هو العصر النبوي، فالعصر الراشدي، فمن بعدهم. وكلما نزلنا من عصر إلى آخر، بدأ التشديد والتضييق شيئًا فشيئًا، والأخذ بالحوط لا بالأيسر، وإن شق على الناس، حتى أمسى الدين - في كثير من أحكامه - مجموعة من «الأحوطيات» التي تكون في النهاية آصارًا وأغلالًا على المكلفين، جاء رسول الإسلام ليضعها عن الناس. وقد قال صلى الله عليه وسلمص: «**إنما**

---

(24) رواه أبو داود في كتاب الملاحم من «سننه»، عن أبي هريرة (4191)، كما رواه الحاكم وصححه، والبيهقي في «المعرفة» وغيرهم، وذكره في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (1874).

بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»[25]، وقال: «**إنما أنا رحمة مهداة**»[26].

والتجديد ليس عمل فرد يترقبه الناس في آخر كل قرن، كما فهم كثيرون من لفظ: «**من يجدد لها دينها**»، فإن كلمة «**من**» تصلح للجمع، كما تصلح للمفرد. وما نختاره في معنى الحديث: أن التجديد يكون جماعيًا، وبهذا لا يكون كل دور الفرد أن يقول: متى يظهر المجدد؟ بل يقول: ما دوري ونصيبي في حركة التجديد[27]. وإذ كان التجديد مطلوبًا في أمر الدين والأصل فيه الاتباع، فهو أكثر طلبًا ولزومًا في أمر الدنيا والأصل فيها الابتداع، فلابد من تهيئة المناخ العقلي والنفسي والاجتماعي للإبداع والابتكار، لا للتكرار والاجترار، وتنمية المواهب والقدرات الخاصة، وتشجيع العقول المبدعة، وتكريم النبوغ والتفوق، ومعاونته على العطاء الأفضل، واستعادة العقول المهاجرة إلى ميدانها الطبيعي والشرعي في رحاب أمتها، فهي أولى بهم، وهم أولى بها. ومن فروض الكفاية على الأمة في عصرنا: أن تنشئ مجالس أو مؤسسات على مستوى الأمة الكبرى، لتنمية الإبداع، ورعاية المبدعين.

تجسيد الإسلام في أخلاق وأعمال:

4- أن تجسد إسلامها الذي تعتز به في علوم وأخلاق وأعمال، ولايبقى مجرد

---

(25) رواه البخاري في «صحيحه» والترمذي والنسائي، كلهم عن أبي هريرة في حديث الأعرابي الذي بال في المسجد، فهموا به، فقال الرسول الكريم: «**لا تزرموه** «أي لا تقطعوا عليه بولته» **وصبوا عليه ذنوبًا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**».

(26) رواه ابن سعد والحكيم الترمذي عن أبي صالح مرسلًا، والحاكم عن أبي هريرة وهو في «صحيح الجامع الصغير» (2345).

(27) انظر: بحثنا «التجديد في ضوء السنة» في كتابنا «من أجل صحوة راشدة».

شعارات ترفع، أو دعاوى تدعى، أو أقوال تقال، فإنما الإيمان ما وقر في القلب، وصدقه العمل.

إن رسول الإسلام جعل الغاية من رسالته أخلاقية، حين قال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[28]، وأثنى ربه عليه فقال: {**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**} [القلم: 4]، وسئلت زوجه عائشة عن خلقه فقالت: «**كان خلقه القرآن**»[29].

وإنما تستحق الأمة الانتساب إليه إذا اتخذت من أخلاقه وهديه أسوة كما قال تعالى: {**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**} [الأحزاب: 21].

وأول هذه الأخلاق: التجرد لله والانتصار على شهوات النفس، ونزعات العصبية للقبيلة أو الحزب، فقد رأينا العصبيات العرقية والقبلية حطمت الصومال، وتوشك أن تحطم أفغانستان وتحرق ثمرة جهادها وحب حصادها إن لم يتداركها الله برحمته، ونرى العصبيات الحزبية في أكثر البلاد العربية والإسلامية، تمزقها شر ممزق، وتفتح ثغرة لعدوها، ليدخل منها ويعبث بمقدراتها.

وثاني هذه الأخلاق: أن تخرج الأمة من العجز والكسل إلى أفق الإنتاج والعمل، ولا تكتفي بأي عمل، حسن أو سئ، بل تعبد الله تعالى بإحسان العمل، فإحسان العمل فريضة كتبها الله على المؤمنين، كما كتب الصيام والصلاة: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء**»[30]، «**إن الله يحب إذا عمل**

---

(28) رواه ابن سعد في «الطبقات»، والبخاري في «الأدب المفرد»، والحاكم في «المستدرك» والبيهقي في «شعب الإيمان»، كلهم عن أبي هريرة، وهو في «صحيح الجامع الصغير» (2349).

(29) رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن عائشة، المصدر المذكور (4811).

(30) رواه مسلم عن شداد بن أوس، وهو من أحاديث «الأربعين النووية» الشهيرة.

أحدكم عملًا أن يتقنه»[31].

لقد أخرتنا أخلاق الضعف والسلبية، فلتتمسك الأمة بأخلاق القوة والإيجابية ...

«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ... استعن بالله ولا تعجز»[32]، **«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل»**[33]، **«ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده»**[34]، **«إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة** (نخلة أو شتلة صغيرة)، **فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»**[35].

إن هذه الروح هي التي صنعت الحضارة الإسلامية المتميزة، حضارة العلم والإيمان، وأقامت دولة العدل والإحسان، ومدت شعاع الإسلام في آفاق الأرض، فما انتشر الإسلام إلا بأخلاق المسلمين، وجل بلاد الإسلام لم يدخلها جيش فاتح، بل مسلم صالح، على أن الجيش قد يفتح أرضًا ولكنه لا يفتح قلبًا. إنما القلوب تفتح بالإقناع والقدوة.

إن الأمة مطالبة بأن تقدم شيئًا للبشرية اليوم كما قدمت بالأمس، ولن تفعل ذلك وهي كلٌ على غيرها في العلم والعمل، تستورد غذاءها، كما تستورد سلاحها، ولا يشفع لها التغني بأمجاد الماضي إذا لم تصل أسبابه بالحاضر، وإلا صدق فيها ما قاله الشاعر قديمًا:

---

(31) رواه البيهقي في «الشعب» عن عاشئة، وحسنه في «صحيح الجامع الصغير».
(32) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (6650).
(33) رواه أحمد والشيخان عن أنس، المصدر السابق (1284).
(34) رواه أحمد والبخاري عن المقدام، المصدر نفسه (5546).
(35) رواه أحمد والبخاري في «الأدب المفرد»، وعبد بن حميد عن أنس، نفس المصدر (1424).

ألهي بني تغلب عن جل أمرهمو قصيدة قالها عمرو بن كلثوم!

يفاخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعرٍ غير مسؤوم!

إن القديم إذا ما ضاع آخره كصارم فلت الأيام مثلوم

* * *

خاتمة

والخلاصة ... أن الأمة الإسلامية حقيقة واقعة، ولكنها لا تجد ما يعبر عنها في واقع المسلمين، و«منظمة المؤتمر الإسلامي» عاجزة عن تجسيد هذه الحقيقة، فهي كيان هش، يكاد إذا نفخت فيه يذوب. حتى الاسم نفسه يدل على الوهن، فهي ليست منظمة البلاد الإسلامية، أو جامعة الدول الإسلامية، على غرار جامعة الدول العربية، فقد رفضت تلك التسمية دول معروفة أبت أن توصف بالإسلامية، فهي علمانية، وظلت هذه المؤسسة التي تمثل مليارًا وربعًا من البشر تنتسب إلى ما سُمي «المؤتمر الإسلامي»[36]، وهي تسمية لأدنى ملابسة، كما يقول النحويون.

لم يجد المسلمون من يحل مشكلة النزاع بين العراق والكويت، ولا مشكلة العراق وإيران، حتى انتهت بالاستعانة بالأجانب لحلها بالتدخل العسكري، ومثل ذلك مشكلة الصومال والصراع بين فصائله، وأدهى من ذلك وأمر: مأساة القتال بين فصائل المجاهدين في أفغانستان!

وإذا كان هذا موقف الدول والحكومات والمؤسسات الرسمية، فالأمل في الشعوب والجماهير، المعتزة بانتمائها إلى الإسلام، والتي تحيا أمة الإسلام في ضميرها، وخصوصًا في عصر الصحوة والانبعاث.

إننا نريدها «أمة» واحدة، كما أمر الله، لا أممًا متناكرة، كما أراد الاستعمار، وكما تريد القوى المعادية للإسلام.

---

(36) ومع هذا يجب أن تبقى «منظمة المؤتمر الإسلامي»، وإن كان بها ما بها من الضعف، مع اجتهاد المخلصين في العمل على تقويتها وشد أزرها، وإزالة العوائق من طريقها، وسد مواضع الخلل فيها، وتهيئة الأسباب لنجاحها، وإذا صدقت النيات ذللت العقبات.

* * *

بيني وبين الأستاذ سيد ياسين

التعقيب الأول للأستاذ سيد ياسين

الحركة الإسلامية بين حُلْم الفقيه وتحليل المؤرخ:

عرف التاريخ الإنساني أنماطًا متعددة من الحالمين بمجتمع أفضل، وصورًا كثيرة من الأحلام الكبرى التي ضمنت كل أشواق الإنسانية في الحرية والعدل والمساواة. ولم تكن هذه الأحلام سوى ثورة على الواقع المتردي، ومحاولة لتجاوزه، إن لم يكن على المستوى الفعل، فعلى مستوى الحلم. وهكذا صيغت عبر المراحل التاريخية المختلفة «يوتوبيات» أو مدن فاضلة متعددة منذ جمهورية «أفلاطون» إلى المدينة الفاضلة للفارابي، وصولًا إلى عديد من «اليوتوبيات» الحديثة التي ربما كان من أبرزها محاولات «توماس مور» وغيره من المفكرين الغربيين، وكل هذه المحاولات الفكرية على تعدد مناهجها واختلاف رؤاها، جمع بينها خيط واحد، هو عدم القبول بالواقع من منطق الرغبة في تغييره وفق خطوط محددة يرى المفكر الحالم أنه يمكن بناء عليها إعادة صياغة العالم، ليكون أكثر عدلًا وحرية. ولكنها تختلف فيما بينها بعد ذلك، وخصوصًا فيما يتعلق بدرجة التفصيل في رسم الملامح، وبيان المراحل، وفي التصريح بالقيم الأساسية التي يصدر عنها المفكر.

استمرارًا لهذا التقليد الفكري الإنساني، فاجأنا الفقيه الإسلامي المعروف الدكتور يوسف القرضاوي بصياغة حلم إسلامي، يهدف إلى توحيد الأمة الإسلامية كلها، ويعني بالأمة كل المسلمين في مختلف أنحاء الأرض، مهما اختلفت جنسياتهم وأوطانهم ولغاتهم وتقاليدهم وفهمهم للإسلام، وذلك تحت رئاسة خليفة إسلامي واحد. ومصدر المفاجأة ليس في هذا الحلم الإسلامي في

حد ذاته، فمن حق كل مفكر أن يحلم كما يشاء، ولكن في الدورية التي نشرت فيها تفاصيل الحلم، وهي تقرير «الأمة في عام» الذي يصدره دوريًا مركز الدراسات الحضارية الذي يعبر عن الحركة الإسلامية، فهذا التقرير - من المفروض فيه أن يكون تقريرًا استراتيجيًا يتناول فيه الشئون السياسية والاقتصادية والإسلامية، وهو قد صيغ على غرار «التقرير الإستراتيجي العربي»، الذي يصدره منذ تسع سنوات سنويًا مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ومصدر الدهشة هنا أن تتصدر مقدمة الدكتور القرضاوي التي تتضمن هذا الحلم الكبير هذا التقرير الاستراتيجي الإسلامي مما يجعلنا نتساءل: هل كان هذا هو الموضع المناسب للنشر؟ إن التحليل الاستراتيجي - بحسب التعريف - لابد له أن ينهض على الوقائع وتحليلها، وهو إن أسس على مجموعة من الأوهام أو الأماني فقد شروطه العلمية، وانعدمت مصداقيته الأكاديمية، ومن هنا يصح التساؤل: هل يمكن الجمع بين الاستراتيجية واليوتوبيا؟

ومما يزيد من واقع الدهشة أنه بعد أن ينتهي القارئ من قراءة مقدمة القرضاوي بعنوان «الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم»، والتي تضمنت حلم إنشاء الإمبراطورية الإسلامية من جديد بقيادة «خليفة»، لم يتحدث عن كيفية اختياره، نرى تقديمًا للأستاذ طارق البشري بعنوان «الأوضاع الثقافية للجوار» يقوم على تحليل رصين للواقع السياسي والاجتماعي والثقافي ويكشف عن منهج عقلاني دقيق.

وهكذا في تقرير واحد يتجاور المنهجان: المنهج المثالي الذي يحلم بإعادة إنشاء الإمبراطورية الإسلامية وتنصيب الخليفة على رأسها، والمنهج العقلاني الذي لا يشطح في آفاق الخيال، وإنما ينطلق من أرض الواقع.

وربما كشف هذا التجاور والتناقض معًا، الصراع الكامن داخل صفوف الحركة الإسلامية ذاتها بين الحالمين أيًا كانت اتجاهاتهم وبين الواقعيين الذين يريدون التعامل مع الواقع بلغة الواقع، وليس بلغة الخيال.

ولا يعني ذلك على وجه الإطلاق أن هؤلاء الحالمين يطلقون لخيالهم العنان بغير ضابط أو رابط، بل إن حلم الفقيه يوسف القرضاوي مصاغ بدقة منهجية بالغة، فهو ينطلق من مجموعة مقدمات مترابطة، وينتهي إلى مجموعة نتائج محددة، كل ما يعيبه، أنه ليس له أي علاقة بالواقع الدولي في جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما أنه لا يعنيه لا الواقع الإقليمي ولا الواقع المحلي لكل بلد إسلامي.

المسألة بالنسبة له في غاية البساطة، فما دام أن المسلمين المتوزعين في بقاع العالم يدينون بالإسلام، فما الذي يمنع من تجميعهم في وحدة سياسية واحدة، يقف «الخليفة» على رأسها.

الأمة الإسلامية بين الحقيقة والوهم:

والدكتور القرضاوي يطرح منذ البداية سؤالًا هامًا: هل الأمة الإسلامية وهم أم حقيقة؟ ويجيب أنها حقيقة بمنطق الدين، وبمنطق التاريخ، وبمنطق الجغرافيا، وبمنطق الواقع، وبمنطق الآخرين، وبمنطق المصلحة والعصر.

وهو يستدل على أن الأمة الإسلامية حقيقة بمنطق الدين لأن القرآن الكريم هو الذي اعتبر المسلمين «أمة» بل «أمة واحدة» ولم يعتبرهم أممًا. وهي أمة بمنطق التاريخ لأنها ظلت هي الأمة الأولى في العالم قرابة ألف عام، امتدت إلى الصين شرقًا، والأندلس غربًا، يحكمها خليفة واحد في معظم الأحيان، أو أكثر من واحد في بعض الأحيان، وهي أمة بمنطق الجغرافيا، لأنها تعيش في

أقطار متصلة متشابكة، بعضها موصول ببعض، من «جاكارتا» شرقًا إلى «رباط الفتح» غربًا، أو من المحيط إلى المحيط، أي من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلس، وهي أمة بمنطق الواقع لأن الشعور بوحدة الأمة والإحساس بآلامها وأفراحها شعور سائد ومتغلغل في كيان أبنائها وخصوصًا في أوقات الشدائد والمحن.

وهي أمة بمنطق الآخرين لأن خصومها ينظرون إلى المسلمين باعتبارهم أمة ذات عقيدة واحدة. ولهذا لا يلتفتون كثيرًا إلى التقسيمات السياسية التي صنعوها هم ولا إلى الخصوصيات القومية والاختلافات الإقليمية والصراعات السياسية والنزاعات الحدودية، لأنهم يعلمون أن روح الأمة شيء أعمق من هذه القشرة الظاهرة.

وهي أمة بمنطق المصلحة والعصر، بمعنى أنه لو لم نكن أمة بالفعل، لوجب علينا - تعبًا لمنطق المصلحة ومنطق عصرنا نفسه- أن نخترع لنا أمة كبرى، نتكثر بها، وننضم إليها، ونحتمي بحماها.

وليس هناك في نظر شيخنا القرضاوي تناقض بين الانتماء إلى الأمة الإسلامية والانتماء إلى وطن من الأوطان.

وإذا كانت الأمة الإسلامية حقيقة لا وهمًا، فكيف يمكن بناء الوحدة السياسية التي ستضمها؟ هناك ثلاثة أمور تضبط هذا الكيان الضخم المرتقب وهي: وحدة دار الإسلام، بمعنى أن المسلمين لهم دار واحدة، وإن تعددت أقاليمها وتنوعت عناصر سكانها، والأمر الثاني هو وحدة المرجعية العليا التي تتجلى في الاحتكام إلى الكتاب والسنة، في ضوء اجتهاد معاصر قويم، يمارسه «مجلس للمجتهدين»، والأمر الثالث وحدة القيادة المركزية أو الرئاسة العامة للأمة كلها، وهي التي تتمثل - كما يقرر القرضاوي - في

«الخليفة» أو «الإمام» الذي ينوب عن رسول الله صلى الله عليه وسلمص في إقامة الدين وسياسة الدنيا به.

ويطالب الشيخ القرضاوي المسلمين أن يعملوا جادين لإحياء نظام الخلافة في صورة عصرية، بعد أن ألغاها أتاتورك عام 1924 حين ألغى الخلافة الإسلامية العثمانية.

وهكذا تكتمل ملامح الحلم الكبير الذي صاغه شيخنا القرضاوي، والذي أسسه على تجاهل الواقع السياسي والاقتصادي للأقطار الإسلامية وإنكار أن هناك تباينات ضخمة في فهم الإسلام ونصوصه، فالإسلام في رأيه هو الإسلام، وليس هناك إسلام عربي أو هندي أو فارسي، أو إفريقي أو آسيوي، كما أنه ليس هناك إسلام حسب الموضوعات، فليس هناك إسلام روحي، وإسلام سياسي.

وإذا كان حلم الشيخ القرضاوي يمكن إضافته إلى التراث الفكري الإنساني للعوالم المثالية التي بناها مفكرون وحالمون سابقون أيًا كانت اتجاهاتهم، فإن خطورة هذه الأحلام المثالية تتجلى حين تسعى بعض الحركات الفكرية أو النظم السياسية لتحويلها إلى واقع، باستخدام العنف أو الإرهاب، ومن خلال محاولة القفز فوق الحقائق والاستهانة بالحدود بين الدول والتدخل في شئونها الداخلية، وإثارة الاضطراب السياسي على المستوى الإقليمي أو العالمي.

وحتى لا نتحدث عن هذه المخاطر على سبيل التجريد، نقنع بالإشارة الموجزة إلى مثلين معاصرين: النموذج السوداني والنموذج الإيراني، أما النموذج الأول فالحلم الذي يهيمن على عقل الدكتور حسن الترابي، والذي يهيمن بفكره وممارسته على النظام السوداني، هو خلق حركة إسلامية عالمية، ويكشف عن ذلك المؤتمرات الدورية التي يعقدها برئاسته في

الخرطوم، والتي يهدف من ورائها إلى صياغة استراتيجية إسلامية عليا، تتمثل أهدافها في قلب النظم السياسية العلمانية القائمة في البلاد العربية، والسيطرة عليها باسم تطبق الإسلام، حتى استخدم العنف السياسي والإرهاب وسيلة لتحقيق ذلك.

والنموذج الثاني هو النظام الإيراني الذي مازالت تعشش في أذهان قادته أحلام تصدير الثورة الإسلامية من خلال الهيمنة الإيرانية والتوسع الإقليمي.

وهكذا يمكن القول أن ممارسة الفكر المثالي، سواء على صعيد المجتمع الواحد، من خلال نشر الأوهام عن إمكانية تأسيس مجتمع الفضائل الذي لا تشوبه شائبة بمجرد إعلان حكم الإسلام، أو على الصعيد الإقليمي من خلال تبني نظرية تصدير الثورة الإسلامية ليس من شأنه سوى وضع العقبات أمام التفكير العقلاني الذي يسعى إلى القضاء على الاستقطاب الفكري، والتطرف الأيديولوجي، والذي يهدد بتفتيت قوى المجتمع، وتضييع وقت الأمة في مناظرات عقيمة للمفاضلة بين العلمانية والإسلامية على سبيل المثال، أو بين العروبة والإسلام، أو بين المؤمنين والكافرين، وهي مناظرات من شأنها أن تصرفنا عن ممارسة التحليل العقلاني لمشكلات المجتمعات التي نعيش فيها، والزاخرة بكل صور التخلف المادي والفكري.

تحليل المؤرخ:

وعلى عكس المنهج المثالي الذي مارسه شيخنا القرضاوي في حلم إعادة بناء الإمبراطورية الإسلامية بقيادة الخليفة، مارس المؤرخ المعروف طارق البشري المنهج العقلاني في تقديمه لنفس تقرير «الأمة في عام» في دراسته والتي وضع لها عنوانًا «الأوضاع الثقافية للحوار».

وعلى عكس القرضاوي تمامًا، فالبشري يبدأ في تأصيله لفكرة المشروع الوطني من الواقع، وليس من التصورات الذهنية التي يبلورها مفكر فرد أو مجموعة مفكرين، ويحاولون إسقاطها على الواقع، ولعل الثقافة التاريخية العميقة للبشري باعتباره مؤرخًا لامعًا تعود على التعامل مع الحقائق التاريخية بالمنهج العلمي، هو الذي عصمه من الانزلاق إلى ممارسة الأحلام المثالية، بالرغم من أنه - مثله في ذلك مثل القرضاوي - من أنصار التيار الإسلامي المستنير ومن أعلى الأصوات التي تطالب بتحقيق مطلب الأصالة الحضارية في سعينا المعاصر نحو التقدم. وهكذا يركز البشري نظره على التفاعلات التي تحدث بين مختلف الروافد والتيارات والفصائل السياسية على أرض الواقع لاستخلاص العناصر الأساسية للمشروع الوطن، ومحاولة التأليف بينها. وهكذا في الوقت الذي يصوغ فيه القرضاوي نسقًا فكريًا مغلقًا، يقوم على أساس الجمع القسري بين المتناقضات، مما من شأنه أن يثير خلافات فكرية واسعة المدى، وخصوصًا بين من يرفضون المفهوم الأساسي الذي يقوم عليه مشروع القرضاوي نفسه، وهو جمع المسلمين جميعًا في مشارق الأرض ومغاربها في وحدة سياسية واحدة، أو فكرة العودة مرة أخرى إلى تنصيب «خليفة» للمسلمين، بالرغم من كل ما شاب هذا النظام في التطبيق من مساوئ متعددة ومثالب لا حدود لها، مما يكشف عنه التاريخ الإسلامي، فإن البشري يقدم نسقًا فكريًا مفتوحًا، يقوم على الانطلاق من أرض الواقع، ويتأسس على أساس الحوار الديموقراطي المفتوح من كافة التيارات.

وهكذا يمكن القول أن حلم الفقيه بإعادة تكون الإمبراطورية الإسلامية التي يحكمها باسم الإسلام خليفة واحد - مهما كان من حق الشيخ القرضاوي

في أن يحلم كما يشاء - من شأنه إشعال نار الخلافات بين مختلف التيارات في مجتمعاتنا، بعكس مشروع البشري الذي يهدف إلى الحوار والاتفاق على الملامح الرئيسية لمشروع وطني تجمع عليه كافة الفصائل السياسية والتيارات الفكرية.

والحقيقة أن الصراع بين التيار المثالي والتيار العقلاني في الحركة الإسلامية المعاصرة يكشف عن المشكلات التي تجابهها في تعاملها سواء مع النظم السياسية العربية الراهنة، أو مع التيارات الفكرية والفصائل السياسية التي لا تنطلق مع الإسلام كمقولة أساسية تحكم حركتها، وإنما تفصل بين الدين والسياسة.

وتبدو هذه المشكلات أوضح ما تكون في الوهم الذي يعتنقه أنصار التيار المثالي بأن مجرد رفع شعار «الإسلام هو الحل» من شأنه حل كافة مشاكل المجتمع، لو طبقت الشريعة الإسلامية كما يفهمون هم هذا التطبيق. ذلك أن المجتمعات الإنسانية وإن كانت تتأثر بالمثاليات والقيم، إلا أن السلوك الفعلي للبشر عادة ما ينزع إلى الابتعاد عن هذه المثاليات والقيم، ومن هنا فتقديم هذه الحركات الإسلامية نفسها كبديل للنظم السياسية القائمة، من شأنه أن يكون مثالًا متجسدًا للفضيلة والأخلاق، وهم لا يمكن أن يصمد للاختبار الواقعي، ولو كان هذا صحيحًا، فما هو تفسير المظالم التي سادت مختلف مراحل التاريخ الإسلامي، بالرغم من تطبيق الشريعة الإسلامية؟ ولو أخذنا أمثلة معاصرة للنظم السياسية التي ترفع لواء تطبيق الشريعة الإسلامية، لوجدنا أن مجرد رفع الشعار لا يغني عن سلامة التطبيق.

ومن ناحية أخرى فإن تطبيقات المنهج المثالي في مجال السياسة الخارجية يمكن أن تكون بالغة الضرر بالمصالح الوطنية للبلاد، أو للمصالح القومية

للنظام العربي. ولو أخذنا على سبيل المثال موقف أنصار هذا المنهج من حل الصراع العربي الإسرائيلي، الذي ينطلق من قناعات دينية تقوم على أساس أن اليهود باعتبارهم يهودًا هم أعداء خالدون للمسلمين، وأنه لا يجوز التعامل معهم، وأنه ليس هناك سوى الجهاد ضدهم سبيلًا لتحرير الأرض العربية، وأن التفاوض معهم، أو الحل السلمي فيه مخافة لهذه القناعات لأدركنا أن تحكيم هذا المنهج في مجال السياسة الخارجية، وحل الصراعات، قد يؤدي إلى سلبيات لا حدود لها، لأن هذا المنهج -بحكم أسسه المعرفية - غير قادر على التعامل مع الحقائق والوقائع، بل إنه يقوم أساسًا على القفز فوق الواقع.

وهكذا كتب علينا في حوارنا الذي لابد لنا أن نمارسه مع أنصار الحركة الإسلامية أن نجابه نمطين من التفكير: حلم الفقيه، وتحليل المؤرخ، فلنحاول التحاور مع من ينطلقون من الواقع، سعيًا وراء الاتفاق على حد أدنى لمكونات المشروع الوطني الذي نرجو أن يتسع لتحقيق الأهداف الكبرى لأمتنا: الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية والأصالة الحضارية.

* * *

ردي على التعقيب الأول
حول مقال «الحركة الإسلامية بين حلم الفقيه وتحليل المؤرخ»

(37)

قرأت ما كتبه الأستاذ السيد ياسين يوم الإثنين الماضي (1994/8/1) في صحيفة الأهرام تحت عنوانه الأسبوعي «أوراق ثقافية» عن «الحركة الإسلامية بين حُلْم الفقيه وتحليل المؤرخ»، ويقصد بالفقيه شخصي، وبالمؤرخ أخي المستشار طارق البشري، وذلك من خلال المقدمتين التي كتبت أولاهما، وكتب الأستاذ طارق الأخرى، لكتاب أو تقرير «الأمة في عام» الذي أصدره «مركز الدراسات الحضارية» عن الشئون السياسية والاقتصادية الإسلامية.

كانت مقدمتي إجابة عن سؤال كبير هو: هل توجد أمة إسلامية في الواقع أو لا؟ وكان الجواب: إن الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم. حقيقة بمنطق الدين، وبمنطق التاريخ، وبمنطق الجغرافيا، وبمنطق الواقع، وبمنطق الآخرين، وبمنطق المصلحة والعصر، كما لخص الكاتب ذلك بأمانة. ولي على مقال الكاتب جملة ملاحظات:

1- اعتبر الأستاذ يس ما كتبته حلمًا كبيرًا يدخل ضمن «اليوتوبيات» والمدن الفاضلة التي تمناها كثير من الفلاسفة والمفكرين ابتداء من «أفلاطون» إلى الفارابي إلى العصر الحديث، ولم ينكر الكاتب أن حلم الفقيه يوسف

---

(37) كان عنوان الرد الذي اخترته هو «لماذا تصادرون حقنا في الحلم»؟ ولكن آثر المسئولون في الأهرام العنوان المذكور. وقد أبقيت في هذا المقال ما حذف في الأهرام، أي أني أنشره كما أرسلته إلى الأهرام.

القرضاوي «مصوغ بدقة منهجية بالغة، فهو ينطلق من مجموعة مقدمات» مترابطة، وينتهي إلى مجموعة نتائج محددة، كل ما يعيبه - في نظره - أنه ليس له علاقة بالواقع الدولي في جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما أنه لا يعنيه لا الواقع الإقليمي ولا الواقع المحلي لكل بلد إسلامي»!

وهذا أحد مآخذي على المقال. فالكاتب - وإن كان متمكنًا متمرسًا معروفًا بموقعه - إذا كتب حول الإسلام وشريعته وحضارته وأمته وصحوته، جمح به القلم، وأخطأه التوفيق في كثير مما يكتب. لا أدري: أهو لنقص في المعرفة أم لمسلمات فكرية قديمة عنده تحتاج إلى مراجعة وتصحيح؟ أم للأمرين كليهما؟ ومن ذلك دعواه أن الحركة الإسلامية لا تملك مشروعًا متكاملًا للنهضة. وهو ما رددنا عليه في كتابنا «بينات الحل الإسلامي».

وأود أن أوضح للأستاذ أن الفقيه الحق ليس - كما تصوره - إنسانًا حالمًا، يحيا بعيدًا عن الواقع ومشكلاته. فالفقيه الحق - كما قال الإمام ابن القيم - هو الذي يزاوج بين الواجب والواقع، فلا يعيش فقط فيما يجب أن يكون، بل فيما هو كائن. والإمام أحمد يرى من صفات المفتي - إلى جوار العلم والحلم والسكينة والكفاية - معرفة الناس. ولا غرو أن جعلنا من شروط المجتهد: معرفة الناس والحياة والعصر، بما يمور فيه من تيارات، وما يؤثر فيه من معارف وأفكار.

والفقه هو الذي يقود الدورة الحضارية للأمة، ويضبط إيقاعها على موازين الكتاب والسنة، وكثيرًا ما يقترح الحلول لمشكلاتها في ضوء أحكام الشرع المقررة، مهتديًا بما قرره علماء الأمة: أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال.

وأحكام الشرع الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع - مثل وحدة الأمة - لا توصف بأنها مستحيلة، ولا بأنها أحلام، إذ لا يمكن أن يكلف الله الناس بما يستحيل وقوعه.

وما ذكر الكاتب من خلاف - متوهم - بيني وبين الأستاذ طارق - إن صح - ليس خلافًا بين فقيه يحلم ومؤرخ يحلل، فالفقيه قد يحلل والمؤرخ قد يحلم. إنما هي طبيعة الموضوع الذي كتب فيه كلا منا، ولو أنه كتب فيما كتبت لكتب بنفس الروح، ولو أني كتبت في موضوعه لكتبت بنفس الروح، وإن اختلف العرض والأسلوب بطبيعة الحال. ومن المعروف في تراثنا: إن الفقيه قد يكون مؤرخًا، والمؤرخ قد يكون فقهيًا، فقد كان الطبري شيخ المؤرخين، وكان فقيهًا له مذهب متبوع، وكان ابن خلدون حكيم المؤرخين، وكان فقيهًا مالكيًا إذ كان قاضيًا شرعيًا.

2- أنكر الأستاذ سيد يس اعتباري الإسلام إسلامًا واحدًا، وليس إسلامات متعددة، كما يقول المستشرقون وتلاميذهم، فهو يختلف باختلاف الأزمنة، فهناك إسلام راشدي، وإسلام أموي، وإسلام عباسي، وإسلام عثماني، وباختلاف الأمكنة، فهناك إسلام آسيوي، وإسلام إفريقي، وباختلاف الأجناس فهناك إسلام عربي، وإسلام تركي، وإسلام هندي، وإسلام حسب الموضوعات، فهناك إسلام روحي، وآخر سياسي ... إلخ.

والحقيقة أني أنظر دائمًا إلى الأصل لا الفروع، وإلى الجوهر لا الشكل، وإلى ما يجمع لا إلى ما يفرق، وبحسب الأمة أن تلتقي في أصول العقيدة والشهادة والقبلة، وتؤمن بالمرجعية العليا للإسلام، كما شرعه الله تعالى وكما دعا إليه رسوله، وكما فهمه الصحابة ومن تعبهم بإحسان، وتؤمن بأن الاجتهاد فريضة وضرورة.

3- زعم الكاتب أني لا يعنيني - فيما كتبت - الواقع الدولي، ولا الواقع الإقليمي، ولا الواقع المحلي. وهو كلام يحتاج إلى تحرير وتدقيق. فالمشروع الذي أطرحه مشروع تغييري، يعترف بالواقع ويعرفه، ولكنه لا يستسلم له، بل يحاول أن يطوره ويغيره وفقًا لأهدافه، وهذا المشروع امتداد لما نادى به من قبل جمال الدين ومحمد عبده والكواكبي ورشيد رضا، من دعاة الجامعة الإسلامية.

ولا يعني هذا استخدام العنف أو الإرهاب، أو من خلال القفز من فوق الحقائق، والاستهانة بحدود الدول ... إلى آخر ما ذكره الكاتب، فهذا ما لا نؤمن به ولا ندعو إليه، إنما ندعو إلى التغيير عن طريق الإقناع والتوعية والتثقيف.ومن ذلك: الحوار مع كل التيارات، قومية وعلمانية، شرقية وغربية كما هو مذكور في كتابي «أولويات الحركة الإسلامية».

كما أني أدعو إلى التدرج من الواقع إلى المثل، سواء أكان ذلك في أمر الوحدة أم في تطبيق الشريعة، فالتدرج سنة كونية، وسنة شرعية، كما بينت ذلك في عدد من كتبي. وقد عاب أحد أبناء عمر بن عبد العزيز على أبيه أنه يتباطأ في تعيير الواقع، فقال له: يا بني؛ إن الله ذم الخمر في القرآن مرتين، وحرمها في الثالثة، وإني أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة، فيدفعوه جملة، فيكون من راء ذلك فتنة.

وقد ذكر الأستاذ حسن البنا في ركن «العمل» من «رسالة التعاليم»: «إعادة الكيان الدولي للأمة الإسلامية، بتحرير أوطانها، وإحياء مجدها، وتقريب ثقافاتها، وجمع كلمتها، حتى يؤدي ذلك كله إلى الخلافة المفقودة، والوحدة المنشودة». فترى فيه إيمانًا بالتدرج.

4- اعتبر الكاتب ما أدعو إليه «إمبراطورية إسلامية» وهذا التعبير غير

صحيح، لا بالنسبة للإسلام ولا بالنسبة لما أدعو إليه، فالإسلام ليس إمبراطوريًا، والخليفة أو الإمام ليس إمبراطورًا. إنما هو قائد لأمة ورئيس لدولة، تحكم الناس بالعدل، وتقودهم بالحق، ويخضع أعلاها وأدناها لحكم الشرع.

وأنا أدعو إلى هذا النظام في صورة عصرية، مستفيدين من تجارب التاريخ ومن نماذج الواقع، غير جامدين على شكل معين، ولا نموذج خاص، ولا مقيدين إلا بالمبادئ التي ألزمنا الله بها من الشورى والبيعة والعدل والتعاون على البر والتقوى.

وما شاب هذا النظام في التطبيق من مثالب فليس هذا من طبيعة النظام، بدليل أنه وجد الخلفاء العادلون في مختلف العصور، ووجد الظالمون، ووجد الأقوياء، ووجد الضعفاء. على أن الذين ألغوا نظام الخلافة لم يكونوا أشرف ولا أنظف ولا أعدل من الخلفاء الذين أسقطوهم، بل العكس هو الصواب، كما دل على ذلك التاريخ.

كما ذكر الأستاذ ياسين أن من شأن هذا الحلم - كما سماه - أن يشعل نار الخلافات بين مختلف التيارات في مجتمعاتنا، فهذا ما لا نلتزمه، إلا أن تكون خلافات على المستوى الفكري. وهذا في مصلحة المجتمع وإثرائه. أما أن ندع الدعوة إلى ما نؤمن به لإرضاء التيارات الأخرى، فهذا ما لا يقول به عاقل، ولماذا لا يطلب من الآخرين ذلك، ونحن الأصلاء وهم الدخلاء؟

إننا نؤمن بمشروعية التعددية في ظل الاحترام لقواطع الإسلام الذي هو الأساس المعنوي لوجود الأمة.

5- ما ذكره الكاتب من أن أنصار التيار الإسلامي يعتقدون أن رفع شعار «الإسلام هو الحل» من شأنه حل كافة مشاكل المجتمع، فهو من

المبالغات المنكورة، فلا أنا ولا غيري يقول هذا. ولو قاله فهو مخطئ، وتغيير القوانين الوضعية لا يغير وحده المجتمع، ولا يحيي الأمة الميتة.

ويسرني أن أذكر هنا ما كتبته في كتابي «أولويات الحركة الإسلامية» (ص 53): «هناك خطأ يجب التنبيه على تصحيحه في طرح الشعارات الإسلامية والحلول الإسلامية للجماهير الإسلامية.

فحينما يتنادى الإسلاميون: الإسلام هو الحل، ولا صلاح لنا إلا بالإسلام، والإسلام هو سفينة الإنقاذ مما نتخبط فيه من مشكلات اقتصادية واجتماعية وسياسية، يتصور جماهير الناس: أن مجرد رفع هذا الشعار، وتأييد أصحابه ودعاته في الانتخابات وحصولهم على عدد كبير من المقاعد ... إلخ ... سيحل كل المشاكل المعلقة بعصا سحرية أو معجزة سماوية!

وهنا يتعين على الإسلاميين ودعاتهم ومفكريهم أن يبينوا للناس بوضوح كاف: أن الإسلام يحل مشكلات الناس عن طريق الناس أنفسهم، وأن الله لا ينزل عليهم ملائكة تقوم عنهم بزراعة الأرض، أو بتنمية الثروة الحيوانية أو السمكية، أو بتقوية الصناعة، أو بتنشيط التجارة، أو بإقامة هياكل البنية الأساسية، أو بتجنيد طاقات الأمة للعمل المنتج، وصرفها عن العبث وتبديد القوى.

إن الناس هم الذين يقومون بهذا كله وبغيره، مما تحتاج إليه الحياة الطيبة ويفتقر إليه المجتمع الصالح المعاصر، وتنشده الإنسانية الراشدة.

لقد قال عمر بن الخطاب لمن قعدوا في المسجد متوكلين على الله: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، إن الله يقول: {**فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ**} [الجمعة: 10].

إن القرآن قد قرر بجلاء، هذه السنة التي لا تتخلف: {**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِم**} [الرعد: 11].

وهذا هو المنطلق الأول: تغيير ما بالأنفس من مفاهيم مغلوطة، وأفكار ميتة أو فاسدة، وأخلاق مذمومة، وصفات مرذولة، إلى مفاهيم صحيحة، وأفكار حية وصالحة، وأخلاق محمودة، وصفات طيبة، يجب أن يتهيأ الناس لحياة غير الحياة التي ألفوها: حياة إنتاج وعمل لا بطالة وكسل، حياة جد لا هزل، حياة تقشف لا ترف، حياة عدل لا محاباة، حياة عرق لا دعة، حياة إصرار لا استرخاء».

6- أما ما كتبه عن أثر هذا التيار الإسلامي - الذي وصفه بالمثالية - على السياسة الخارجية، وإمكان أن يضر ذلك أبلغ الضرر بالمصالح الوطنية أو القومية، فهو توهم لا رصيد له من الواقع، وزعمه أن انطلاق هذا التيار من اعتبار أن اليهود أعداء خالدون للمسلمين باعتبارهم يهودًا، هو زعم لا أساس له من كتاب ولا سنة، ولا فقه، وعداء المسلمين لليهود ليس من أجل يهوديتهم، كيف وهم أهل كتاب قد أباح الله مؤاكلتهم ومصاهرتهم كالنصارى؟ وكيف وقد عاشوا في رحاب دار الإسلام معززين مكرمين حتى كان منهم كبار الموظفين والوزراء وذوي المال والسلطان؟

إنما العداء لليهود لأنهم غصبوا الأرض، وهتكوا العرض، وسفكوا الدم، وشردوا الأهل، وأي أرض؟ إنها أرض النبوات، وأولى القبلتين، ومسرى النبي الكريم؟

فالتيار الإسلامي لا يعارض السلام العادل والشامل، ولكنه يعارض السلام إذا كان في صورة استسلام، يعطي ولا يأخذ، ويفرط في الحقوق، ويتساهل في الحرمات.

إنـي لأعجب مـن الكاتـب أن صـنفني مقابـل التيـار العقلانـي فـي الحركـة الإسلامية! ولـم يقل ذلك أحد غيره فيما أعلم، وما هو هذا التيار العقلاني المزعوم؟ إن كان الذي يرفض الاحتكام إلى الوحي فأنا بريء منه، وإن كان الذي يوفق بين العقل والنقل، ويجمع بين السلفية والتجديد، ويوازن بين ثوابت الشرع ومتغيرات العصر، فكل قرائي يعرفون موقعي منه، وهو التيار الذي أسميه «تيار الوسطية الإسلامية»، وتلك هي أسسه المعرفية، التي ادعى الكاتب أنها تجعله غير قادر على التعامل مع الحقائق والوقائع!

لقد عاشت الأمة قبل أن يزحف عليها الاستعمار في ظل الخلافة، التي كانت مظلة لوحدتها، ثلاثة عشر قرنًا ونصفًا، ثم فرض عليها تحت وطأة الاستعمار والنفوذ الأجنبي أن تعيش هذه السبعين عامًا الأخيرة بلا مظلة واقية، فكيف اعتبرت هذه المدة الأخيرة هي الأصل، ومدة عمرها الطويل هي الاستثناء؟

7- ثم أريد أن أقول لأستاذ سيد ياسين: هب أني كنت أحلم مع الحالمين بقيام دولة أو حتى إمبراطورية إسلامية كبرى يحكمها خليفة في ظل نظام شورى عصري، فهل من حرج على أن أحلم مجرد حلم بالمستقبل؟!

إن اليهود حلموا بإقامة دولة لهم، واستطاعوا أن يحققوا حلمهم بعد خمسين سنة، ولا زالوا يحلمون بدولة «إسرائيل الكبرى»؟ وأوروبا تحلم بالبيت المشترك! والعالم في الشرق والغرب يحلم.

فلماذا تصادرون حقنا - نحن وحدنا - في مجرد الحلم؟ وقد قيل بحق: حقائق اليوم أحلام الأمس، وأحلام اليوم حقائق الغد.

إن الحوار الذي يمارسه الكاتب مع التيار الإسلامي إذ سار على هذه الطريقة غير ذي جدوى، لأنه فقد الموضوعية والإنصاف، وهو يهدم ولا

يبني، ويفرق ولا يجمع، وإثمه أكبر من نفعه.

* * *

التعقيب الثاني لسيد ياسين

الإمبراطورية والخليفة:

في لحظة من لحظات الصدق مع النفس كشف الشيخ القرضاوي في حلمه الذي نشره كمقدمة للتقرير الخاص «بالأمة في عام»، والذي يعبر عن الحركة الإسلامية وبغير أن يقصد عن المسكوت عنه في خطاب أنصار الإسلام السياسي؟

لقد أكدنا أكثر من مرة أن الرؤية الأساسية التي يصدرون عنها وإن كانوا لا يعلنون ذلك أبدًا هو إقامة دولة دينية يسيطر عليها مجموعة من الفقهاء باسم الإسلام، ويفرضون بفتاويهم التي يصدرونها اتجاهاتهم - وفق قراءتهم للنصوص الدينية - على الواقع الاقتصادي والسياسي والثقافي. بل إننا زدنا وقلنا إن محاولتهم أشبه بتأسيس مذهب لولاية الفقيه على الطريقة السنية، تقليدًا للمذهب الشيعي المعروف، والتي تحكم على أساسه إيران في الوقت الراهن.

وها هو اليوم شيخنا الجليل يوسف القرضاوي الذي أخذ علينا وصفًا لحلمه بأنه غير واقعي، ولا يلقى أي اعتبار للحقائق المحلية والإقليمية والدولية، ولا للحدود بين الدول، ولا لاختلافات المجتمعات الإسلامية في التاريخ الاجتماعي، وفي الأفكار السائدة، بل في فهمها للإسلام، ها هو يدافع مرة أخرى عن حلمه الوهمي في مقاله الذي نشره في الأهرام بتاريخ (7 أغسطس 1994)، ويقول: أي حرج على أن أحلك مجرد حلم بالمستقبل؟

ونقول له: ليس عليك حرج إذا حلمت واحتفظت به لنفسك، أما وقد نشرته على الملأ كمقدمة لتقرير استراتيجي إسلامي، فمن حقنا أن نناقش أولًا: مدى

واقعيته وضعًا في الاعتبار الظروف الدولية والإقليمية والمحلية، ثانيًا: مدى خطورة تأثير هذا النشر في الترويج لأفكار قد تكون هي ذاتها وقودًا ومحركًا لحركات انقلابية إسلامية، لا ترى في هذا الحلم وهمًا من الأوهام، وإنما تراه هدفًا جديرًا بالسعي لتحقيقه من خلال الحركة السياسية، وهنا يقع المحظور، ويختلط الخيال بالواقع وتحدث بلبلة فكرية كبرى، وقد تؤدي إلى صراعات دامية، تحدث أمواجًا من الاضطراب السياسي في مجتمعاتنا التي تسعى للخروج من دائرة التخلف.

عناصر الحكومة الدينية:

ولأن الشيخ القرضاوي لا يتعطي السياسة، وإنما هو مشغول بالاجتهاد في مجال الفقه الإسلامي، فهو لم يلجأ إلى الصياغات السياسية التي يتبناها أنصار الإسلام السياسي، ويؤكدون عليها مؤخرًا، وأهمها إيمانهم بالديمقراطية والتعددية السياسية وتداول السلطة، وقبول فكرة الدستور الوضعي الذي لا يتنافى مع الشريعة الإسلامية، ومن هنا يمكننا القول بكل ثقة أن المشروع الحقيقي لأنصار الإسلام السياسي يتمثل فيما نشره فعلًا الشيخ القرضاوي، والذي يقوم على تأسيس حكومات دينية في كل بلد إسلامي بعد القضاء على الدولة العلمانية القائمة سواء بالعنف أو بالإجراءات الديموقراطية، وزاد على ذلك الشيخ القرضاوي بأن هذه الدولة الدينية الإسلامية، ينبغي أن تكون عالمية، بمعنى جمع شمل الأمة الإسلامية في وحدة سياسية جامعة يقوم الخليفة على رأسها ويساعده في ذلك «مجلس المجتهدين».

وهكذا يمكن القول أن عناصر الحكومة الدينية الإسلامية العالمية التي ينكر السعي إلى تأسيسها أصحاب الإسلام السياسي، في الوقت الذي يؤكدها

فيه الشيخ القرضاوي ثلاثة:

الأول: وحدة دار الإسلام، بمعنى تجمع كل شعوب الأمة الإسلامية في كيان سياسي واحد، لا يعترف بالحدود القائمة، ولا بالملوك والأمراء والشيوخ والرؤساء الذين يرأسون هذه الدول، ولم يحدثنا الشيخ القرضاوي عن كيف سيزيح كل هذا الطابور الطويل من الملوك والرؤساء المسلمين من طريقه لإفساح المسرح للخليفة حتى يحكم هذه الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة؟ هل سيعمد - كما زعم - إلى الدعوة للتغيير عن طريق الإقناع والتوعية والتثقيف؟

«تأمل محاولة إقناع الملوك والأمراء والشيوخ والرؤساء لكي يتنازلوا عن سلطاتهم ويسلموا دولهم لقيادة الخليفة الإسلامي الجديد»!

الثاني: وحدة المرجعية العليا التي تتجلى في الاحتكام إلى الكتاب والسنة في ضوء اجتهاد معاصر قويم ويتمثل في صورة جماعة على مستوى الأمة في صيغة «مجلس للمجتهدين»، وها نحن مباشرة في مواجهة العنصر الثاني من عناصر الحكومة الدينية، ونعني ولاية مجموعة من الفقهاء لم يحدد لنا الشيخ القرضاوي طريقة اختيارهم، وتحكمهم في مسيرة المجتمع بالفتاوي التي يصدرونها على الطريقة الإيرانية، حيث يتدخل الفقهاء في أمور السياسة والاقتصاد والثقافة، مما من شأنه أن يؤدي إلى تردي الأوضاع، لأن آلية الفتوى التي تحدد غالبًا بناء على قراءة رجعية محافظة ما هو الحلال والحرام يمكن أن توقف التطور، وتجمد مسيرة المجتمع، لننظر إلى الفشل الذريع الذي يلاقيه الآن النظام الإيراني والنظام السوداني.

الثالث: وحدة القيادة المركزية، أو بنص تعبير القرضاوي «الرئاسة للأمة كلها»، وهي التي تتمثل في «الخليفة» أو «الإمام» الذي ينوب عن رسول الله

صلى الله عليه وسلمص في إقامة الدين وسياسة الدنيا به.

ترى هل هناك أوضح في بيان عناصر الحكومة الدينية من هذا النص، الذي لم يتورع فيه شيخنا القرضاوي عن أن يقرر بكل بساطة بأن الخليفة سينوب عن الرسول صلى الله عليه وسلمص؟ وإذا كان نائبًا عن الرسول ألن تضفى عليه قداسة تمنع من مساءلته أو الاحتجاج على سياساته؟

غير أن الدكتور القرضاوي بكل علمه الغزير، لم يفصل الحديث عن كيفية اختيار الخليفة، وهنا لابد من إثارة عدد من الأسئلة:

هل سيتولى الخليفة منصبه بالتعيين أم بالانتخاب؟ ولو كان بالتعيين من الذي سيعينه؟ هل هو مجلس المجتهدين المقترح؟

أم إنه إيمانًا بقواعد الديموقراطية سيتم انتخاب الخليفة ديموقراطيًا. وتظل هناك أسئلة: من له حق الترشيح؟ وهل لابد أن يكون من رجال الدين، مع أنه لا كهانة في الإسلام، ولا احتكار في معرفة الشريعة، أم أن أي مواطن عادي يمكنه الترشيح؟

وهل سيتم تداول السلطة، بمعنى أنه سيتغير الخليفة كل فترة زمنية، أم أنه ما دام قد جلس على كرسي الخلافة، فلن ينزل منه أبدًا؟

كل هذه أسئلة مشروعة، نوجهها للشيخ القرضاوي حتى يزيدنا علمًا بمشروعه المستقبلي الكبير، والذي لا يرى فيه بعض أنصار الحركة الإسلامية مجموعة من الأوهام والأماني، كما سبق أن وصفته. ومن أبرز هؤلاء أستاذنا الدكتور توفيق الشاوي أستاذ القانون والمفكر الإسلامي المرموق في رسالة وجهها إليَّ، وقرر أنه اندهش من اعتراضي على نشر حلم الفقيه القرضاوي في تقرير «الأمة في عام» على أساس أنه لا يجوز

الجمع بين الاستراتيجية واليوتوبيا، ومقررًا أن الدكتور القرضاوي ليس أول فقيه يدعو لاستراتيجية بناء وحدة الأمة الإسلامية، فقد سبقه لذلك أكبر فقيه في العالم العربي في العصر الحديث وهو الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهوري في كتابه الذي وضعه بالفرنسية في عام 1926، ونشرت ترجمته العربية بعنوان «تطور الخلافة لتصبح عصبة أمم شرقية».

ويقرر الدكتور الشاوي أن إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي، ومجمع الفقه الإسلامي، والمنظمة الإسلامية للفقه والعلوم، بالإضافة إلى منظمات إسلامية أخرى فيه ترجمة لهذه الدعوة التي سبق بها الدكتور السنهوري.

وردنا على الدكتور الشاوي أن السنهوري أدرك بغزير علمه حقائق النظام الدولي، ولم يدع إطلاقًا إلى استعادة نظام الخليفة القديم كما يدعو الشيخ القرضاوي بكل صراحة. الشيخ القرضاوي يدعو إلى إعادة تأسيس الإمبراطورية الإسلامية وتنصيب الخليفة على رأسها. وهذا هو الحلم الذي نعتناه بأنه مجموعة من الأوهام والأماني. وليس هناك ما يمنع من قيام منظمات إسلامية في كافة المجالات كما يقترح الدكتور الشاوي حتى ندخل عالم التكتلات الدولية موحدين لا متفرقين. ولكن هذا الاقتراح مختلف تمامًا عن الأوهام التي يصر عليها شيخنا الجليل القرضاوي.

وهو يطمئننا بأن هذه الأفكار لن تؤدي إلى اختلافات أو صراعات سياسية، ولن تتلقفها جماعات تؤمن بالعنف. غير أن هذه العبارات المطمئنة تخالفها الوقائع. فما كنا نظن حين عبرنا عن تخوفاتنا - من خلال الاستنتاج المنطقي لا أكثر ولا أقل - أن الأحداث ستؤكدها.

اليوتوبيا والعمل السياسي:

حملت إلينا وكالات الأنباء تحليلًا مطولًا لمؤتمر إسلامي هام عقد في لندن وحضره حوالي ثمانية آلاف مسلم الغرض منه الدعوة إلى إنشاء «دولة إسلامية عالمية واحدة»، وقد جاء في تقرير وكالات الأنباء أن المؤتمر دعا إلى تأسيس هذه الدولة والقضاء على دولة إسرائيل. وقد دعا بعض أعضاء المؤتمر إلى قلب النظام السياسي في كل من السعودية والعراق على أساس أن المعارضة ليس مسموحًا بها هناك. وقد نظم المؤتمر الذي انعقد في «ويمبلي» منظمة الوحدة الإسلامية، وهي منظمة تضم عددًا من الجماعات الإسلامية المتوزعة في أنحاء العالم والتي تهدف إلى تأسيس حكومة إسلامية واحدة.

وقد تحدث أحد أعضاء المؤتمر وهو الدكتور محمد الملكاوي مقررًا أن الإسلام نظام أسمى من كل النظم، وهو يستطيع أن يعيش بمفرده وعلى هدى من أسسه، ثم أضاف: «الحكم الإسلامي لا يستطيع أن يتعايش مع أي نظام آخر كالاشتراكية أو الرأسمالية والديموقراطية».

وقد أصدر المؤتمر مجموعة من التوصيات من بينها وردت العبارة التالية: «كل النظم في العالم الإسلامي ليس لها أي شرعية الإسلامية».

وتوصية أخرى تقرر: «ليس هناك سلام مع دولة إسرائيل ولابد من إزالة هذه الدولة»، وتؤكد أن كل المفاوضات والاتفاقات مع إسرائيل غير قانونية.

وقررت وكالات الأنباء في تقريرها التحليلي عن المؤتمر أنه يعد من أكبر المؤتمرات الإسلامية التي عقدت خارج الشرق الأوسط وحضرها أعضاء من دول إسلامية شتى من الباكستان حتى البوسنة. وقد نشرت جريدة «الجارديان» تصريحات لأحد أعضاء المؤتمر رفض أن يفصح عن اسمه

وهو من باكستان أعلنه في المؤتمر وجاء فيه: «نعم نحن أصوليون لا نستطيع أن نجري أي مساومات حين يصل الأمر إلى الإسلام، غير أننا لسنا إرهابيين وينبغي علينا أن نعمل كل ما في وسعنا لكي ننشئ السيطرة الكاملة للخليفة على الأمة، في دولة إسلامية عالمية لا تقوم على أساس القومية».

وهكذا - وعلى غير توقع منا بالمرة - يجيء خبر هذا المؤتمر، لكي يؤكد ما قلناه أن ما ينشر ويروج له حتى باعتباره حلمًا يمكن أن يتحول في الواقع العملي، إذا تبناه مجموعة من الأنصار المتحمسين إلى حركات فكرية وسياسية تسعى إلى تغيير الواقع في البلاد الإسلامية بطرق انقلابية، ومن خلال العنف الذي سيعتبر مشروعًا ومبررًا، ما دام الهدف الأسمى هو إعادة تأسيس الفردوس المفقود، ونعني نظام الخلافة الذي يتأسى الشيخ القرضاوي كثيرًا على اندثاره، ويدعو إلى استعادته.

ويقرر الشيخ القرضاوي بهذا الصدد: «ذلك أن أساس المشروعية لدولنا الإقليمية والقومية الحديثة والمعاصرة التي تضمها جامعتنا العربية أو ينتظمها ما سمي «منظمة المؤتمر الإسلامي» أساس واهٍ ضعيف، من وجهة النظر الإسلامية الخالصة. وفي أول تجربة أو امتحان، اهتز هذا الأساس، بل أوشك أن ينهار، لأنه يفتقد المشروعية العقائدية العليا التي تسنده، وتمنحه مبرر الوجود والبقاء»، ويضيف: «لقد كان للمسلمين خليفة يناديهم في الأزمات أن هبوا، وكان يستنصر به المستضعفون إذا أغير عليهم، ويحسب حسابه الخصوم إذا فكروا في اقتحام حماهم».

واليوم لم يعد لهم من يمثلهم ولا لهم «بابا» كـ «بابا النصارى» فلا قيادة سياسية ولا قيادة دينية. لقد ضيع المسلمون الخلافة، ولم يستطيعوا أن يوجدوا نظامًا بديلًا.

وهكذا يحلم القرضاوي بإعادة تنصيب الخليفة على الإمبراطورية الإسلامية الجديدة التي ستتكون من الأقطار التي يراها متصلة متشابكة بعضها موصول ببعض، من «جاكارتا» شرقًا إلى «رباط الفتح» غربًا، أو من المحيط الهادي إلى الأطلسي.

الحلم وصدمة الواقع:

يأخذ علينا الشيخ القرضاوي نعتنا لنمط فكره بأنه مثالي، ويقول إنه من أنصار الوسطية الإسلامية، والحقيقة إن لم يكن حلمه المنشور يعبر عن فكر مثالي خالص مفارق للواقع، فماذا تكون المثالية إذن؟ وأين هي العقلانية، في تخيل أن الحدود بين الدول الإسلامية - التي لا يربطها ببعضها رابط إلا في الاشتراك في الديانة - ستزول، وسيختفي الملوك والأمراء والمشايخ والرؤساء وسيبقى الخليفة فقط على رأس الأمة؟

وألا يعد ذلك تجاهلًا للواقع والاختلافات العميقة في قراءة الإسلام، وفي الممارسة الإسلامية؟ وهل يمكن تجاهل الفروق بين الشيعة والسنة حتى على مستوى العقائد؟ وهل يمكن القفز حول الخصوصيات الثقافية المتنوعة، ومراحل التطور المتباينة في المجتمعات الإسلامية؟

وإذا كان الشيخ القرضاوي يستهين بكل التحديات والعقبات التي يقف دون تأسيس إمبراطورية إسلامية موحدة برئاسة الخليفة، فإننا سنطلب منه، هو وأنصار مشروع الإسلام السياسي الذين يكثرون من الحديث عن وحدة الأمة الإسلامية، مع أن الواقع يؤكد توزعها بين مذاهب واتجاهات شتى، وأن يدلل على قدراته التوحيدية الجبارة، لحل مشكلة أفغانستان التي يتقاتل فيها فريقان مسلمان يحتكم كل منهما إلى نفس المرجعية العليا: القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلمص، هل يمكن له من خلال الوساطة أن ينهي

الخلاف الدموي بين رباني وحكمتيار؟ ألم تذهب وفود من ممثلي تيار الإسلام السياسي للسعي في هذا الاتجاه ولم تعد بغير الفشل؟

أنعجز عن التوفيق بين رباني وحكمتيار وندعي القدرة على تأسيس الإمبراطورية الإسلامية وبإعادة تنصيب الخليفة؟

وبعد ... في ضوء تقديرنا البالغ لاجتهادات شيخنا يوسف القرضاوي في مجال الفقه، نؤكد له ألا كهانة في الإسلام، ومن هنا فاختلافنا في الرأي لا يرد إلى نقص في المعرفة كما زعم، فمعرفة الشريعة الإسلامية ليست حكرًا على المشايخ، ولا إلى أفكار قديمة نتشبث بها، لأننا ننظر إلى المستقبل، ولا نميل إلى التعبد في إطار تجارب الماضي التي تجاوزها التاريخ.

* * *

رد على مقال «الإمبراطورية والخليفة»

عاود الأستاذ سيد ياسين الكتابة في أهرام الإثنين (1994/8/15) حول ما أسماه «الإمبراطورية والخليفة»! معقبًا على ردي المنشور في الأهرام (1994/8/7)، ومصرًا على نعت ما كتبته بالحلم والمثالية والبعد عن الواقع. ولي على المقال جملة ملاحظات أجمل أهمها فيما يلي:

1- لا أدري: من البعيد عن الواقع حقًا؟ الذي يعبر عن ضمير الأمة، ويترجم عن أفكارها ومشاعرها، أم الذي يتجاهل ذلك ويتناساه وكأنما يتحدث عن أمة أخرى؟

إن أي مسلم عرف القليل من أحكام دينه، يؤمن أنه ينتمي إلى أمة كبرى ظهرت بظهور الإسلام، وأنها خير أمة أخرجت للناس، وأن الخطباء في الجمع يدعون الله أن يصلح أحوالها، وينصرها على أعدائها، وما ذكرته من وحدة دار الإسلام، ووحدة المرجعية العليا، ووحدة القيادة العليا، ليست أحكامًا من اختراعي، إنما هي أحكام شرعية مقررة، ومتفق عليها بين مذاهب المسلمين.

فليسأل الأستاذ ياسين الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية ومجامع الفقه الإسلامي، وأساتذة الجامعات الإسلامية في العالم الإسلامي كله عن حكم نصب الإمام أو الخليفة، وسيجد إجابة الجميع واحدة، وهي أنه فرض واجب شرعًا. وكان هذا يدرس لنا في الأزهر في كتب التوحيد، وكنا نحفظ - ونحن طلاب ثانوي - منظومة الجوهرة في العقائد، وفيها يقول الناظم:

وواجب نصب إمام عدل بالشرع فاعلم لا بحكم العقل

وإذا لم يكن للمسلمين إمام، فهم آثمون، لأنهم عطلوا فرضًا كفائيًا مفروضًا

على الأمة في مجموعها، وفي ذلك ورد الحديث الصحيح عن ابن عمر: **«من لقي الله وليس في عنقه بيعة لإمام مات ميتةً جاهلية»**.

ولا يعفي المسلم من هذا الإثم إلا أن يسعى مع الساعين لسد هذه الثغرة.

فإذا كنا نريد أن نكون واقعيين حقًا «في نظر الكاتب»، فلنحذف هذا - إن استطعنا - من كتب العقائد، وكتب الفقه، وكتب التفسير والحديث، ونحرم تدريس هذا للمسلمين في المعاهد والمساجد! أما أن يظل المسلمون يعتنقون هذه الأفكار ولا يجدون من يعبر عنها، فهذا أبعد ما يكون عن الواقعية.

2- خلط الأستاذ ياسين بين ما هو ديني وما هو إسلامي، واعتبرهما شيئًا واحدًا، وجعلني من الداعين إلى «حكومة دينية»، بل أزيد عليهم بكونها «حكومة عالمية».

وأنا فعلًا أدعو إلى حكومة إسلامية، لا حكومة دينية «ثيوقراطية»، فالحكومة الدينية هي حكومة الكهنة، والإسلام لا يعرف الكهانة. والحكومة الإسلامية حكومة مدنية تحتكم إلى الإسلام، وتعتبره مرجعًا أعلى لها. والمعرفة بالشريعة ليست حكرًا على أحد، كما قال الكاتب، إنما هي علم ودراسة من حصلها فهو أهل أن يفتي ويقضي ويعلم.

وأبو بكر وعمر وغيرهما لم يكونوا كهنة، إنما كانوا رجال دولة من الطراز الأول. ووجود «مجلس للمجتهدين» لا يعني أنه هو الذي يقود الدولة في كل شيء، إنما يرجع إليه في المشتبهات، كما رأينا الدولة المصرية رجعت إلى الأزهر في قضية «مؤتمر السكان»، لتعرف ما يقبله الدين منه وما يرفضه، وقال الرئيس مبارك: لن نوافق في المؤتمر على شيء يتعارض مع شريعتنا وقيمنا.

كما ينبغي أن يضم مجلس المجتهدين - مع فقهاء الشريعة - متخصلى الله عليه وسلمين على أعلى مستوى في الاقتصاد والسياسة والطب والعلوم وشئون الحياة الأخرى.

والرجوع إلى أهل الاجتهاد لا يعني أن الدولة دينية، بل يعني أنها ملتزمة بأصول شريعتها، إلا إذا أريد لها أن تحل ما حرم الله، وتحرم ما أحل الله، وتسقط ما أوجب الله.

إن الإسلام أوسع من الدين، وقد اعتبر الأصوليون «الدين» إحدى «الضروريات الخمس» التي جاءت شريعة الإسلام بالمحافظة عليها وهي: «الدين والنفس والعقل والنسل والمال». فلا يجوز تعمد الخلط بين الإسلامي والديني، واعتبار الدولة الإسلامية دولة دينية بالمعنى الذي عرفه التاريخ الأوروبي.

وقد علق الكاتب على قولي عن «الإمام» أنه الذي ينوب عن رسول الله في إقامة الدين وسياسة الدنيا به: أن هذا يضفي عليه «قداسة» تمنع من مساءلته أو الاحتجاج على سياسته.

وهذا التعريف للإمام ليس من عندي، إنما هو قول الأئمة: الرازي والتفتازاني وابن خلدون وغيرهم. وهو لا يضفي أي قداسة أو عصمة لأحد، فقد قال الخليفة الأول: إن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني، وقد رفض أن يسمى خليفة الله، وقال: «أنا خليفة رسول الله».

وقال الخليفة الثاني: «من رأى منكم في اعوجاجًا فليقومني».

وقال عمر بن عبد العزيز: «إنما أنا واحد منكم غير أن الله جعلني أثقلكم

حملًا».

3- وما ذكره الكاتب عمن سماهم «أنصار الإسلام السياسي»! وإيمانهم بالديمقراطية والتعددية السياسية، وتداول السلطة، وقبول دستور وضعي لا يتنافى مع الشريعة فأنا معهم في هذا، وربما كنت في طليعة الداعين إلى هذا كله، انطلاقًا من الإسلام وفي إطار أصوله ومقاصده، وقد تحدثت عن هذا بتفصيل في كتبي وبخاصة الجزء الثاني من كتابي «فتاوي معاصرة»، وقد ذكرت فيه أن جوهر الديمقراطية لا يتناقض مع جوهر الشورى في الإسلام، ورددت على الذين يتوهمون أن الإسلام ضد الديمقراطية بإطلاق، كما وضحت شرعية التعددية السياسية بضوابطها، وقلت: إن تعدد الأحزاب في مجال السياسة، أشبه بتعدد المذاهب في مجال الفقه، وأن الأحزاب مذاهب في السياسة، كما أن المذاهب أحزاب في الفقه. وأن علي بن أبي طالب أقر بوجود حزب الخوارج إذا لم يشهروا عليه سيفًا.

4- أزمني الكاتب ما لا ألتزمه، وهو: الطفرة والقفز فوق الواقع، وكأنني أطالب بإقامة الخلافة المنشودة اليوم أو غدًا. إنني أومن بالتدرج وأعتبره سنة كونية، وسنة شرعية، ولابد من بذل الجهود لإزالة العوائق، وتقريب الثقافات، والبدء بما هو أيسر وأقرب «أي بالنواحي الثقافية والاقتصادية»، وصولًا إلى ما هو أصعب وأبعد «في النواحي السياسية»، يقوم بذلك المتخصلى الله عليه وسلمون في كل موقع.

ولم أدع إلى عودة نظام الخلافة بصورته القديمة ولا إلى الوحدة بصورتها التقليدية، فقد تكون وحدة اندماجية أو فيدرالية، أو كونفدرالية، أو غيرها من الصور التي يصل إليها اجتهاد البشر، لتحقيق مصالحهم المشتركة، ثم تتطور

بتطور الزمن وقوة عوامل الوحدة بين أقطار الأمة.

ووجود الملوك والأمراء والشيوخ والرؤساء، لا يعني إلغاء سلطانهم المحلي، فالأمر لا يمكن أن يتصور بهذه السذاجة، ولكن الآمال والأحلام الكبيرة ينبغي أن تعلو على الواقع.

ونحن - مع دعاة القومية العربية - نؤمن بالوحدة العربية، ونراها قدر هذه الأمة، وهي مقدمة ضرورية للوحدة الإسلامية، فهل يمنع العروبيين والإسلاميين من هذا الحلم المشروع: وقوف هذا الطابور الطويل من الملوك والرؤساء والمشايخ والأمراء من العرب المتشبثين بسلطانهم؟ بل هذا الواقع المزري الذي مزق الأمة شر ممزق، ولاسيما بعد كارثة الخليج وآثارها؟

5- قال الأستاذ: إنني لم أفصل الحديث عن كيفية اختيار الخليفة: أيكون بالتعيين؟ ومن له حق التعيين؟ أم بالانتخاب؟ ومن الذي له حق الترشيح؟ وهل لابد أن يكون من رجال الدين، مع أنه لا كهانة في الإسلام، ولا احتكار في معرفة الشريعة أم أن أي مواطن عادي يمكنه الترشيح؟

وأقول للأستاذ ياسين: إني لم أفصل ذلك لسببين، الأول: إني لم أكتب بحثًا عن نظام الخلافة أو النظام السياسي في الإسلام، إنما كتبت مقدمة عن الأمة المسلمة باعتبارها حقيقة لا وهمًا. والثاني: أنه ليس من حقي أن أحتكر هذا التفصيل لنفسي، إنما هو حق الأمة ممثلة في أهل الحل والعقد فيها، تختار ما تراه أنسب لظروفها ومرحلة تطورها، قد يكون في شكل مجلس رئاسة منتخب، وقد يكون واحدًا من الرؤساء الموجودين يتناوبون الرئاسة، وقد تختاره برلمانات هذه الدولة ومجالس شوراها، وقد يكون باستفتاء عام من درجة معينة، ومن حق أي مسلم استجمع الشروط أن يرشح نفسه، والشروط معروفة تجمع الصفات العلمية والعقلية والخلقية، ولابد من وضع نظام

أساسي أو دستور يحدد ذلك ويحترمه الجميع، والمسلمون عند شروطهم.

ولم يقل أحد: إن إمام المسلمين أو رئيس دولتهم يجب أن يكون من رجال الدين، فليس في الإسلام رجال دين أو كهانة، كما قال الكاتب بحق. والنظام الإيراني له طبيعته الخاصة، والنظام السوداني الذي أشار إليه الكاتب لا يحكمه من يسميهم رجال الدين، ونسميهم: علماء الدين.

وتداول السلطة أمر مطلوب، ولا سيما في عصرنا، وليس في السياسة الشرعية ما يمنع منه. والسوابق التاريخية ليست ملزمة شرعًا لنا، فقد ذكر المحققون أن فعل الرسول نفسه لا يلزم من بعد من الخلفاء، ولهذا خالفه عمر في عدم تقسيم أرض العراق المفتوحة على الفاتحين، كما قسم النبي صلى الله عليه وسلمص خيبر، لأن الرسول الكريم فعل ما هو الأصلح في زمنه، وعمر فعل ما هو الأصلح في زمنه، كما قال العلامة ابن قدامة.

6- أما ما ذكره الأستاذ عن مؤتمر لندن وما قيل فيه، فلم يخف علي أمره، وهو يؤكد أن القضية التي تناولتها حية وليست ميتة، وأنا أعلم أن هناك من يقول: لو قام داع للخلافة في ألبانيا لوجب على أهل أندونيسيا أن يطيعوه! وفصائل الغلو والتنطع والعنف في التيار الإسلامي موجودة بالفعل، ولا يقاومها شيء مثل الفكر الإسلامي الرشيد، الذي يؤمن بثبات الأهداف، وتطور الوسائل، ويشدد في الأصول وييسر في الفروع، ويوازن بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر، يستلهم الماضي، ويعايش الحاضر، ويستشرف المستقبل، وهذا هو «تيار الوسطية الإسلامية» الذي ندعو إليه، أما مقاومة هذه الفصائل بالحذف أو بالعنف، فما أظنه يجدي.

7- أما ما ذكره الكاتب عن النزاع في أفغانستان، وعجز الجماعات الإسلامية

عن التوفيق بين رباني وحكمتيار، فهو يؤكد ما قلته، من حاجة الأمة المسلمة إلى قيادة أو سلطة عليا، تملك أن تقول فتسمع، وتأمر فتطاع، كما تملك حق العقوبة للمخالف الباغي وتأديبه. وقد قال تعالى: {**وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ**} [الحجرات: 9]، فمن الذي يملك القوة المادية التي تقاتل الباغي حتى يفئ إلى أمر الله، إن لم يكن هو الإمام؟

8- أنكر الكاتب نقص معرفته بالإسلام، وهو ما نتمناه، وأكد أن معرفة الشريعة ليست حكرًا لفئة، وهو ما نؤمن به. فمن حق كل مسلم - بل من واجبه - أن يتفقه في دينه، وأن يتلقاه من مصادره الأصيلة، ومن أهله الثقات، وبأدواته المنضبطة، وأن يسأل أهل الذكر فيما أشكل عليه، حتى لا يقول على الله ما لا يعلم، فليس في العلم كبير: {**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**} [يوسف: 76].

وبهذه المناسبة أنصح الأستاذ ياسين أن يعيد قراءة ما كتبت بروح أخرى، بل أدعوه مخلصًا أن يقرأ ما كتبته وكتبه الإسلاميون الأصلاء من دعاة الوسطية، فمشكلته ومشكلة نظرائه: أنهم لا يقرأون ما نكتب، في حين نقرأ نحن ما يكتبون!

ومن حسن الحظ أن الموضوع الذي كتبت فيه ينعقد «وأنا أكتب ردي هذا» مؤتمر كبير بشأنه في الإسكندرية، هو المؤتمر العام للشئون الإسلامية، يحضره ممثلون عن مائة دولة، ويوجه الرئيس فيه كلمة، يدعو فيها إلى ضرورة حل النزاعات، وتوحيد الأمة الإسلامية، والمؤتمر ينعقد تحت شعار «الأمة الإسلامية واقعها ومستقبلها». فهل يتفضل الكاتب بأن ينصحهم بالبحث عن موضوع آخر، فإن الأمة التي يتحدثون عنها وهم لا حقيقة!

هذه كلمتي الأخيرة في الموضوع، ولن أعود إليه مرة أخرى. {**وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ**} [الأحزاب: 4].

* * *

خاتمة

ليسمح لي القارئ الكريم أن أضع في هذه الخاتمة خلاصة مقدمة لكتاب شهير وخطير، ترجم إلى العربية أخيرًا[38]، وهو كتاب «الدولة اليهودية» بمؤلفه «تيودور هرتسل» الذي نشر لأول مرة (سنة 1896) أي من نحو قرن من الزمان، يقول المؤلف:

«إن الفكرة التي طورتها في هذا الكتيب فكرة موغلة في القدم، هي فكرة استعادة الدولة اليهودية. إن العالم يردد صيحات صاخبة ضد اليهود، وهذه الصيحات هي التي أيقظت الفكرة من سباتها.

«وأود في بادئ الأمر أن يكون مفهومًا بشكل جلى أن حجتي لا تنبني في أي من أسانيدها على اكتشاف أمر جديد، فأنا لم أكتشف الأوضاع التاريخية لليهود ولا الوسائل لتحسين تلك الظروف. وفي الحقيقة فإن كل إنسان يستطيع أن يرى بنفسه أن عناصر الفكرة التي أقوم بالتخطيط لها ليست موجودة فحسب ولكنها حقًا ظاهرة للعيان. ومن ثم فإن هذه المحاولة لحل المشكلة اليهودية يمكن وصفها بكلمة واحدة: «توليفة»، ولكنها بالتأكيد ليست خيالًا».

«لابد لي- بصفة مبدئية - أن أجنب مشروعي أن يعامله النقاد السطحيون على أنه «يوتوبيا»، فإنهم أحرى أن يرتكبوا هذا الخطأ في التقدير ما لم أبادر إلى تحذيرهم. ومن الواضح أنني لن أكون قد فعلت شيئًا أخجل منه لو أنني صورت هذه اليوتوبيا على أسس إنسانية ...

«إن المشروع الذي أطرحه الآن ينطوي على توظيف قوة دافعة موجودة

---

(38) ترجمة صديقنا الأستاذ محمد يوسف عدس، وراجعه وقدم له صديقنا الدكتور عادل حسن غنيم، ونشرته دار الزهراء

بالفعل. وسوف اقتصر على الإشارة إلى التروس والعجلات الخاصة بالآلة التي نريد بناءها وسوف أعتمد على المهندسين المهرة في تركيبها أكثر من اعتمادي على نفسي.

«إن كل شيء يعتمد على قوتنا الدافعة ... ولكن ما هي قوتنا الدافعة؟ إنها بؤس اليهود؟ فمن يجرؤ على إنكار وجوده؟ إنني سأناقش هذا كاملًا في الفصل الخاص بأسباب العداء للسامية.

«كلنا يألف ظاهرة قوة البخار التي يولدها الماء الذي يغلي فيرفع غطاء الغلاية، هذه الظاهرة الخاصة بغلاية الشاي هي محاولات الصهاينة والجمعيات الصهيونية لكبح جماح العداء للسامية. ومن ثم فإنني أعتقد أن هذه القوة إذا أمكن استخدامها بإحكام فإنها كافية لدفع آلة ضخمة تحمل الركاب والبضائع ... هذه الآلة ستتخذ أي شكل مما يختاره الناس.

«إنني على يقين تام أنني على حق وإن كنت أشك فيما إذا كنت سأبقى حيًا لأرى الأيام تبرهن على ذلك[39]، أما أولئك الذين سيكونون أول من يفتتح هذه الحركة، فمن النادر أن يبقوا على قيد الحياة ليشهدوا نهايتها العظيمة، ولكن افتتاحها في حد ذاته يكفي لمنحهم الشعور بالفخر والسعادة بالتحرر الروحي.

«لن أطيل في وصف جمالي مفصل لمشروعي خشية إثارة الشك في أنني أؤلف «يوتوبيا»، وعلى أي حال فإنني أتوقع أن بعض الساخرين الذين لا فكر لهم سوف يصورون مشروعي بصورة هزلية، وبذلك يحاولون إضعاف أثره. لقد شرحت مشروعي ليهودي على قدر من الذكاء في مجالات أخرى -

(39) توفي «هرتسل» في (3 يوليو سنة 1904) بعد أن تجاوز الرابعة والأربعين من عمره، أي أنه ألف «الدولة اليهودية» في سن الخامسة والثلاثين.

فكان رأيه: «أن مشروعًا تمثلت تفاصيله المستقبلية كأنها واقع هو مشروع طوباوي».

«وهذه مغالطة، فكل وزير مالية يحسب في ميزانيته تقديرات لأرقام افتراضية، ولا يعتمد فقط على الأرقام المستمدة من متوسطات عوائد السنوات السابقة، ولا على العوائد في الدول الأخرى ... فهل يمكن اعتبار مسودة الميزانية يوتوبيا!؟

«إن لي عند قرائي توقعات أكبر، فأنا أطلب من المثقفين الذين أخاطبهم أن يضعوا جانبًا كثيرًا من الآراء التي كونوها في الماضي، بل إنني أذهب أبعد من ذلك لطلب من أولئك اليهود الذين حاولوا ما في وسعهم حل المشكلة اليهودية أن ينظروا إلى محاولاتهم السابقة على أنها خطأ ولا فائدة منها.

«ولابد لي هنا وأنا أستعرض آرائي أن أتحفظ تجاه خطر ما، فإذا وصفت الأوضاع المستقبلية بحذر شديد فسوف أبدو كأني أشك في إمكان حدوثها. ومن ناحية أخرى لو أنني أعلنت بتأكيد أكبر مما ينبغي فسوف أبدو كأنما أصف وهمًا، ومن ثم فسوف أقرر بوضوح وتأكيد أنني أومن بالناتج العملي لمشروعي، ولكن دون أن أتنبأ أنني قد اكتشفت الشكل الذي قد يتخذه في النهاية.

«إن الدولة اليهودية ضرورية للعالم ولذلك فسوف تقوم.

«إن الخطة قد تبدو بطبيعة الحال غير معقولة إذا حاول معالجتها شخص بمفرده، ولكن إذا توفر عليها عدد من اليهود متعاونين فقد تبدو معقولة تمامًا، ولن ينطوي إنجازها على صعوبات تستحق الذكر إن نجاح الفكرة يعتمد فقط على عدد مؤيديها.

«لعل شبابنا الطموح - وقد أصبح كل طريق أمامه للتقدم مغلقًا - يرى في هذه الدولة اليهودية مستقبلًا مشرقًا بالحرية والسعادة والشرف مفتوحًا أمامهم، فيحرص على نشر الفكرة.

«إنني أشعر أنني بنشر هذا الكتيب تكون مهمتي قد انتهت، وأنني لن أحمل القلم مرة أخرى إلا إذا دفعني إلى ذلك هجمات خصوم ذوي شأن، أو إذا أصبح من الضروري التصدي لاعتراضات غير متوقعة، أو أن أزيل خطأ ما.

«فهل أنا أقرر ما ليس واقعًا؟

«هل جئت قبل زمني؟

«هل معاناة اليهود ليست على درجة كافية من الخطورة؟

«سوف نرى ...

«إن الأمر يتوقف على اليهود أنفسهم أن يبقى هذا الكتيب السياسي خيالًا سياسيًا، فإذا كان هذا الجيل أغبى من أن يفهمه على حقيقته، فإن جيلًا قادمًا أفضل وأكثر استنارة سينهض لفهمه.

«إن اليهود الذين يريدون الدولة اليهودية ستكون لهم، وسوف يستحقونها[40].

هذا ما كتبه «هرتسل» في مقدمة كتابه، ولم تكن الرؤية أمامه واضحة، ولا مكان الدولة المنشودة عنده قد تحدد، أهو الأرجنتين أم فلسطين ...؟ وكان هناك معارضون لتوجهاته من كبار الشخصيات اليهودية وأثرياء اليهود. ولكن بعد أن انعقد المؤتمر الصهيوني الأول بمدينة «بال» بسويسرا في

(40) «الدولة اليهودية» الترجمة العربية (ص35- 38).

(1897/8/29) بدا المستقبل واضحًا أمام عينيه، وغدا يتحدث عن دولة اليهود وكأنها حقيقة ماثلة، وهذا ما نطقت به كلماته بعد المؤتمر حين قال:

«لو طلب مني تلخيص «مؤتمر بازل» في كلمة - وعلي أن أحرص على عدم التلفظ بها بصوت عال - لكانت هي: في بازل أقيمت أسس الدولة اليهودية! لو قلت ذلك بصوت عال لضحك الجميع مني. لكن ربما في خمس سنوات، وبالتأكيد في خمسين سنة، سيسلم كل واحد بالأمر. إن تأسيس دولة ليكمن في إرادة الشعب لإنشاء دولة، بل يكمن في إرادة فرد قوي قوة كافية ... الأرض فقط هي الأساس المادي ...»[41].

وبعد خمسين سنة من مؤتمر «بازل»، وبالضبط خمسين سنة وبضعة أشهر قامت «الدولة اليهودية» وتحقيق حلم «هرتسل» الكبير.

أمن حق اليهود وحدهم أن يحلموا، وليس من حقنا - نحن المسلمين - أن نحلم! وحلم اليهود كان مستحيلًا أو شبه مستحيل، أما نحن فنحلم بشيء كان أمرًا واقعًا إلى ما قبل سبعين عامًا فقط.

إن العاقل هو الذي يتعلم ولو من عدوه، وعلينا أن نتعلم الحلم والأمل والصبر والمصابرة من اليهود، حتى نحقق الأحلام. والحكمة ضالة المؤمن أني وجدها فهو أحق الناس بها.

* * *

(41) المصدر المذكور: مقدمة المراجع (ص13).